

مراثي متمم بن نويرة "دراسة في التاريخ والشعر"

الدكتور عدنان محمد أحمد*

الملخص

يفترض هذا البحث أن الحزن العميق الذي يعبر عنه متمم بن نويرة في رثائه لأخيه مالك، لم يكن ناتجاً من وطأة مصيبة الفقد، بقدر ما كان نابعاً من وطأة إحساس بقهر ولده ونمأة موقف السلطة المتحيز - من وجهة نظر الشاعر - للقاتل. وهو موقف يؤسس لفقد الثقة بجدوى الانتماء للدولة، فيعمق الإحساس بالغربة ويضرم الحنين إلى النظام القبلي بما يمثله من منظومة قيم ضامنة لحقوق أبناء القبيلة. وهذا ما يفسر - كما يرى الباحث - تمسك متمم بالقيم الجاهلية في رثائه، وعزوفه عن القيم الإسلامية، وعن المعاني الدينية التي كان ينبغي - من الناحية النظرية، على الأقل - أن يستمد منها، وأن يتكى عليها.

ومقتل مالك حادثة أحاطت بها ملابسات كثر الحديث عنها فزادها غموضاً، فكان لا بد من التوقف عندها بصفقتها الفعل المحرك لإبداع الشاعر المراثي. فهي لا تعيننا - في هذا المقام - إلا بالقدر الذي يمكن أن تسهم فيه في قراءة النصوص الرثائية. ولكن قبل الحديث عن مقتل مالك، رأى الباحث أن التعريف بالشاعر أمر منهجي ينبغي التزامه.

كلمات مفتاحية: متمم، مالك، مراثي، نويرة

* أستاذ أدب صدر الإسلام في كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة تشرين.

تاريخ القبول: ١٠/١١/٨٩

تاريخ الوصول: ٣٠/٥/٨٩

اسمه ونسبه

هو مُتَمِّم بن نُؤَيْرَةَ بن جَمْرَةَ^١ بن شَدَّاد بن عُبَيْد^٢ بن ثَعْلَبَةَ بن يَرْبُوع^٣ بن حَنْظَلَةَ بن مالك بن زيد مَنَاة ابن تَمِيم^٤ بن مُرَّ بن أَدَّ بن طَابِخَةَ بن إِيَّاس بن مَضْر بن نزار^٥. فهو تَمِيمِي يَرْبُوعِي. ومُتَمِّم شاعر مخضرم، عاش ردحاً من حياته في الجاهلية والآخر في الإسلام، إذ توفي نحو سنة ٣٠ هـ^٦. وكان قد أسلم هو وأخوه وحسن إسلامه^٧. يكنى أبا نهشل^٨، ويقال: أبو تميم^٩، ويقال: أبو فجعان^{١٠}، ويقال: أبو إبراهيم^{١١}. ويبدو أنه اشتهر بكنيته الأولى أكثر؛ إذ نجد ابن عَنَمَةَ الضَبِّيَّ - وكان أُسر في إحدى المعارك فافتداه متمم - يخاطبه بها في شعر له^{١٢}.

وافتداء متمم لابن عَنَمَةَ^{١٣} يُعدُّ نشاطاً اجتماعياً بارزاً ينقض ما يذهب إليه بعضهم من أنه كان كثير الانقطاع في بيته قليل التصرف في أمر نفسه^{١٤}. أما الكنى الأخرى فلا نعرف من أمرها ما يستحق الذكر. فهل كان "تميم" و "فجعان" من أولاده؟ لا تذكر المصادر التي بين أيدينا سوى ولدين له؛ هما إبراهيم وداود،

١- الإصابة في تمييز الصحابة، ٤٧٤/٣، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ٢٩٥/٤، "حمزة".

٢- المصدر نفسه، "عبد".

٣- طبقات فحول الشعراء، ٢٠٣/١، والإصابة في تمييز الصحابة، ٤٧٣/٣، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ٢٩٥/٤.

٤- معجم الشعراء، ٤٩٩، وجمهرة أنساب العرب، ٢٢٤، وخزانة الأدب، ٢٣/٢.

٥- الأغاني، ٢٨٩/١٥.

٦- معجم الأعلام، ٢٧٤/٥.

٧- معجم الشعراء، ٤٩٩، والإصابة في تمييز الصحابة، ٤٧٧/٣.

٨- طبقات فحول الشعراء، ٢٠٣/١، والأغاني، ٢٨٩/١٥، ومعجم الشعراء، ٤٩٩.

٩- سمط اللآلي، ٩٢/١، ومعجم الشعراء، ٤٩٩.

١٠- سمط اللآلي، ٩٢/١.

١١- معجم الشعراء، ٤٩٩.

١٢- الشعر في العقد الفريد، ١٧٠/٥.

١٣- هو عبد الله بن عَنَمَةَ، شاعر مخضرم مقلِّ، أدرك الإسلام وأسلم، وشهد القادسية (انظر الاشتقاق، ١٩٩، والإصابة في تمييز الصحابة، ٤٧٦/٢).

١٤- وفيات الأعيان، ١٥/٦.

وكانا شاعرين خطيبين. ودخل إبراهيم على عبد الملك بن مروان فقال له: إنك لشينخف. فقال يا أمير المؤمنين إني من قوم شينخين^١ قال: وأراك أحمر قرناً^٢. قال: قال: الحسنُ أحمر يا أمير المؤمنين^٣. وفي رواية أخرى أن عبد الملك أذن له بالدخول بعد أن شهد له شهوّدً بالعقل وبالفضل، وبعد أن رأى عبد الملك فيه ما يؤيد تلك الشهادة قال له: "أنشدنا بعض مرثي أبيك عمك" فأنشده^٤. "كان متمم من الصحابة رضي الله عنهم"^٥.

يروى أبو الفرج أن عمر بن الخطاب قال لمتمم: "إنكم أهل بيت قد تفانيتم، فلو تزوجت عسى أن تُرزق ولداً يكون فيه بقية منكم"^٦. وإذا صحّت هذه الرواية يكون متمم قد تزوج أول مرّة بعد موت مالك. وقد تزوج امرأة من المدينة اسمها هند- كما يذكر في شعره- ولكنه، بحسب الرواية نفسها، لم يلبث أن طلقها. ويرد في شعره اسم امرأة أخرى؛ هي أم خالد، يقال إنه قد تزوجها أيضاً^٧. ولا نعرف ما إذا إذا كان ابناه؛ إبراهيم وداود، شقيقين!

لا نعرف كثيراً من صفات متمم، غير أن المشهور أنه كان قصيراً أعور، ويبدو أن عوره كان نتيجة إصابته في إحدى عينيه^٨. ويمكن أن نقدر أنه كان جسيماً، بالاستناد إلى ما ذكره ابنه إبراهيم لعبد الملك بن مروان اشتهر متمم برثاء أخيه مالك الذي قتل في بداية خلافة أبي بكر^٩، في أثناء المعارك التي اصطلح على

١- الشينخف، الطويل(انظر اللسان، شينخف).

٢- القرّف، الشديد الحمرة.

٣- الشعر والشعراء، ٢١٠.

٤- الموشح، ٣٠٦، ٣٠٧. وفي جمهرة أنساب العرب، "ولتمّم ابنٌ شاعرٌ اسمه داود بن متمّم" انظر ص، ٢٢٤.

٥- خزائن الأدب، ٢٣/٢.

٦- الأغاني، ١٥ / ٣٠١.

٧- المصدر نفسه، ١٥ / ٣٠٢.

٨- المصدر نفسه، ١٥ / ٢٩٨، ٢٩٩.

٩- اختلف في تحديد قاتل مالك؛ فقيل، هو ضرار بن الأزور(طبقات فحول الشعراء، ١ / ٢٠٨، فتوح البلدان، ٦٦،

تسميتها بـ"حروب الردة". "وكان مالك أتى النبيّ فأسلم، وولاه صدقات بني يربوع ابن حنظلة، فلما قبض النبيّ خلى ما كان في يده من الفرائض، وقال: شأنكم بأموالكم. ويقال إنه ولّاه صدقات جلّ بني يربوع"^١. وكان مالك فارساً شريفاً معدوداً في فرسان بني يربوع في الجاهلية، وكان من أرداف الملوك^٢. وارتقى بما تمتع به من خصال حميدة إلى مرتبة اجتماعية رفيعة، حتى لقد ضرب به المثل فقيل: "رجل ولا كمالك"^٣. وقد ترك مقتله في نفس متمم جرحاً عميقاً لم يندمل، فأمضى حياته في بكائه، وأجاد فيما قال، ولذلك وضعه ابن سلام الجمحي في أول طبقة المراثي^٤. وكان "أكثر الشعراء القدماء لوعة وحرقة على أخيه"^٥. وتلك اللوعة والحرقة تظهران بشكل جليّ في رثائه، وهذا ما دفع أحد الباحثين^٦ إلى القول: إنه لم يكن "بياريه في هذا الحزن إلا المهلهل في رثائه لأخيه كليب، والخنساء في رثائها لأخويها صخر ومعاوية". وهو قول تأمل في ظاهر الرثاء، ولم يستطع أن يتلمّس الفارق بين رثاء متمم ورثاء الآخرين. وكان الحطيئة، الشاعر العظيم، أكثر إحساساً بما بين رثاء متمم وغيره من فارق في درجة اللوعة والحرقة، إذ قال عندما سأله عمر بن الخطاب: هل رأيت أو سمعت بأبكي من هذا؟: "لا، والله ما بكى بكاءه عربي قطّ، ولا يبكيه"^٧! ولم يعلل الحطيئة حكمه، وما كان عليه أن يفعل، ولكنّه

تاريخ الطبري، ٢٧٨/٣، وأنساب الأشراف، ١٠/١٢٤) وقيل، هو خالد بن الوليد (الأغاني، ١٥/٢٩٠، الشعر والشعراء، ١/٣٣٧، ديوان المعاني، ٢/١٧٤، تاريخ يعقوبي، ٢/١٣١) ويقال، هو عبيد بن الأزور (الأغاني، ١٥/٢٩٠)، وفي الأشباه والنظائر (٢/٣٤٨)، رجل يعرف بابن الأزور. ومالك مذكور في المغتالين، انظر صفة جزيرة العرب، ٢٦٣.

١- أنساب الأشراف، ١١/٢٢٧.

٢- الكامل للمبرد، ٣/١٤٤٧.

٣- المصدر نفسه، ٢/٦٧٨.

٤- طبقات فحول الشعراء، ١/٢٠٣.

٥- الرثاء، شوقي ضيف، ١٥.

٦- محمود حسن أبو ناجي، الرثاء في الشعر العربي، ٦٥.

٧- معجم الشعراء، ٥٠٠، والإصابة في تمييز الصحابة، ٣/٤٧٨.

أدرك بحسّه المرهف أنّ ثمّة فارقاً واضحاً. وهذا الفارق يعود كما نرى إلى الظروف التي اكتنفت موت مالك، فجعلت متمماً في غربة قاسية. وهكذا استغرق شعره في رثاء أخيه، واستطاع أن ينفذ إلى وجدان الناس، حتى لقد تمثل بعض الشعراء بفراقهما على فعل الدهر بالناس^١. كما تمثّلت بشعره السيدة عائشة-رضي الله عنها- وهي تقف على قبر أخيها عبد الرحمن^٢.

ويبدو أن متمماً ظلّ في موطن قومه بعد إسلامه، وإن كان قد زار عاصمة الخلافة أكثر من مرّة. ويروي أبو الفرج أنه "بينما طلحة والزبير يسيران بين مكة والمدينة إذ عرض لهما أعرابي، فوقفا ليمضي، فوقف، فتعجّلا ليسبقاه فتعجّل، فقالا: ما أثقلك يا أعرابي تعجلنا لنسبقك فتعجّلت، فوقفنا لتمضي فوقفت؟ فقال: لا إله إلا الله مفني أغدر الناس، أغدر بأصحاب محمد (ص)؟ هبّاني خفت الضلال فأحببت أن أستدلّ بكما، أو خفت الوحشة فأحببت أن أستأنس بكما. فقال طلحة: من أنت؟ قال: أنا متمم بن نويرة. فقال طلحة: وا سواتاه، لقد مللنا غير مملول. هات بعض ما ذكرت في أخيك من البكاء"^٣. وإذا صحّت هذه الرواية فإنها ترجح أن تردّد متمم على المدينة كان نادراً، ولولا ذلك لتمكّن الصحابيّان من معرفته. وإن كانت-الرواية- في الوقت نفسه لا تبيّن كيف عرف متمم الصحابيّين، ولم يعرفاه!!

مقتل مالك

أما قصة مقتل مالك ففيها اختلاف كبير، وقد أشار ابن سلام إلى هذا الاختلاف فقال: "وحديث مالك مما اختلف فيه فلم نقف منه على ما نريد، وقد سمعت فيه

١- رثاء إسماعيل بن يسار النسائي ل محمد بن عروة في التعازي والمراثي، ١٩٢. وإسماعيل بن يسار شاعر أموي، كان من موالي بني مرّة، توفي سنة ١٣٠ هـ.

٢- التعازي والمراثي، ١٤٧، والإصابة في تمييز الصحابة، ٤٧٨/٣. كذلك تمثل بشعره جعفر بن الزبير(انظر أنساب الأشراف، ٣٣٤/٤) وعمر بن عبد العزيز، لما مات أخوته(انظر الإصابة في تمييز الصحابة، ٤٧٨/٣).

٣- الأغانى، ٣٠١/١٥، ٣٠٢، والإصابة في تمييز الصحابة، ٤٧٨/٣.

أقول شتى، غير أن الذي استقرّ عندنا أن عمر أنكر قتله، وقام على خالد فيه وأغظ له، وأنّ أبا بكر صفح عن خالد وقبّل تأوّلّه^١.

ومردّ هذا الاختلاف إلى ما اعترى قصة مقتله من تحوير كان هدفه تبرئة خالد بن الوليد من دم متمم، والمحافظة على صورته كقائد نموذج للجيش الإسلامي الذي منع "الفتنة" فحافظ على وحدة الدولة الإسلامية الناشئة، والذي كان أساس الجيش الإسلامي الكبير الذي حقق الانتصار تلو الآخر في الفتوحات، فكان وراء النمو المتسارع للدولة الإسلامية التي لم تلبث أن تحولت -بعد زمن غير طويل- إلى امبراطورية مترامية الأطراف.

لقد كبر على كثيرين ممن تحدثوا عن مقتل مالك أن يكون القائد الفذّ المتميز خالد بن الوليد قد قتل مالكاً بغير وجه حق، فسعوا -ما وسعهم ذلك- إلى ترتيب مقدمات تؤدي -أو توحي على الأقل- إلى أن ما فعله خالد كان شرعياً، أو على الأقل ليس مناقضاً للشرع بصورة متعمّدة. وهكذا حذفوا من تفاصيل الحدث، أو أضافوا، ما كان من شأنه أن يحقق ما يرمون إليه.

ترد القصة في تاريخ الطبري برواية^٢ يبدو من خلالها أن خالدًا خرج على وصية الخليفة، إذ تذكر الرواية - أن الأنصار شهدوا بأنّ الخليفة أمرهم بالإقامة بعد بزاحة ريثما يصل إليهم أمره بشأن تحديد اتجاه حركة الجيش، وتذكر الرواية - أنه لم يشهد المهاجرون والتابعون بإحسان - لاحظ أنّ مصطلح التابعين بإحسان استحدث في وقت متأخر بعد صدر الإسلام - مع خالد بأنّ الخليفة عهد إليهم أن يمضوا. وتقدم الرواية حجة على لسان خالد غايتها نفي عصيان أمر الخليفة عنه، وهي أنه لو رأى فرصة لا تقبل انتظار أمر الخليفة، أو ابتلي بأمر ليس فيه عهد، لكان عليه أن يتصرف بالطريقة التي يراها مناسبة كقائد. وإذا كانت هذه الحجة

١- طبقات فحول الشعراء، ٢٠٣/١.

٢- تاريخ الطبري، ٢٧٦/٣. و ترد القصة بصيغ أخرى في الفتوح، ١٨/١، والرّدة للواقدي، ٥٧، وتاريخ الخميس، ٢٠٩/٢.

مقبولة في ساحات المعركة حيث لا يكون ثمّة متسع لانتظار أوامر القيادة العليا، فإنها غير مسوغة في هذا الموقف الذي تشير إليه الرواية أعلاه.

ولذلك تردّد الأنصار في المسير مع خالد. وواضح أنه تبعوه، فيما بعد، لا عن اقتناع بوجهة نظره، ولا عن تبين شرعية موقفه، بل خوفاً من النتائج التي قد تترتب على موقفهم، ولاسيما أنّ موقفهم في السقيفة كان حاضراً بقوة في ذاكرة القيادة الإسلامية الجديدة، وكلها من المهاجرين. ولم يكن الخليفة مطمئناً لهم، ولذلك لم يشأ أن يوكل إليهم منصباً قيادياً في الجيش الذي أعدّه لمحاربة "المرتدين" إلا بعد أن عاتبوه^١. وهذا يعني أن انضمامهم إلى خالد كان لغايات دنيوية خالصة.

ومن الملاحظ في هذه الرواية أنّ مالكا كان غاية خالد الوحيدة، وليس المرتدين من بني يربوع، ولذلك كان هدف السرايا البحث عن مالك وإحضاره، وانتهت مهمة الجيش الإسلامي، في تلك المنطقة، بمقتل مالك ومجموعة من أصحابه الذين كانوا معه.

كان مقتل مالك بحاجة إلى تسويغ، والتسويغ الذي تقدمه الرواية غير مقنع؛ فمن الذي يمكن أن يصدق أن يكون القتل تمّ -كما تذكر الرواية- نتيجة فهم معنى "كناني" لقول خالد "القرشيّ المخزومي"؟! ولاسيما أنّ الذي قتل مالكا، بحسب الرواية، ضرار بن الأزور، وهو أسديّ وليس كنانياً!! وهل كان كل الذين مع خالد من كنانة، وعلى جهل تام بلغة قريش؟ ولنفترض أنّ الأمر قد تمّ نتيجة هذا الخطأ، أفلم يكن ينبغي أن يعبر خالد عن أسفه لهذا الخطأ الذي أودى بحياة جماعة من المسلمين؟! ثم لماذا أتقى -كما تذكر الرواية- برأس مالك ورفاقه القدر حتى نضج الطعام؟!^٢

١- تاريخ يعقوبي، ١٢٩/٢.

٢- يقال: إن خالداً أخذ رأس مالك بعد قتله "فجعلهُ أئفياً للقدر وجعل وجهه مما يلي النار، فنظرت إليه على تلك الحال امرأة من قومه فقالت: اصرفوا وجهه عن النار، فإنه، والله، كان غضيض الطرف عن الجارات، حديد النظر في الغارات، لا يشبع ليلة يضاف، ولا ينام ليلة يخاف". الأشباه والنظائر، ٣٤٥/٢.

على أية حال، لم تكن هذه القصة مقنعة، حتى لدى المؤرخين، ولذلك تم سرد حكاية أخرى تذهب إلى أن خالدًا كان "يعتذر في قتله أنه قال له وهو يراجع: ما إخال صاحبكم إلا وقد كان يقول كذا وكذا. قال: أوَمَا تعدّه لك صاحباً! ثم قدّمه فضرب عنقه وأعناق أصحابه"!!^١ وواضح أن هذه الرواية تقدم حجة أو هي من حجة سابقتها! غير أن الطرافة فيها أن بعض الرواة تدخلوا في تحديد مقصد مالك بقوله "صاحبكم" وذهبوا إلى أنه يعني به الرسول^٢ (ص) ولا نعلم كيف استدلوا على ذلك!!

ويروي صاحب الفتوح رواية أخرى فيها تفاصيل مفيدة؛ تذكر أن إحدى السرايا التي بثها خالد وقعت "على مالك بن نويرة، فإذا هو في حائط له ومعه امرأته وجماعة من بني عمّه، فلم يرع مالك إلا والخيل قد أحدقت به، فأخذوه أسيراً، وأخذوا امرأته معه، وكانت بها مسحة من جمال، وأخذوا كل من كان من بني عمّه فأتوا بهم إلى خالد بن الوليد حتى أوقفوا بين يديه. فأمر خالد بضرب أعناق بني عمّه بدياً. فقال القوم: إنا مسلمون فعلى ماذا تأمر بقتلنا؟ قال خالد: والله لأقتلنكم، فقال له شيخ منهم: أليس قد نهاكم أبو بكر أن تقتلوا من صلى للقبلة؟ فقال خالد: بلى قد أمرنا بذلك، ولكنكم لم تصلوا ساعة قط. فوثب أبو قتادة (الحارث ابن ربيعي، أخو بني سلمة) إلى خالد بن الوليد فقال: أشهد أن لا سبيل لك عليهم. قال خالد: وكيف ذلك؟ قال: لأنني كنت في السرية التي قد وافتهم فلما نظروا إلينا قالوا: من أين أنتم؟ قلنا: نحن مسلمون، فقالوا: ونحن مسلمون، ثم أذنّا وصلينا، فصلّوا معنا، فقال خالد: صدقت يا أبا قتادة، إن كانوا صلوا معكم فقد منعوا الزكاة التي

١- تاريخ الطبري، ٢٨٠/٣. وفي طبقات فحول الشعراء، ٢٠٧/١، "...فقال خالد، أما علمت أن الصلاة والزكاة معاً، لا تقبل واحدة دون الأخرى؟ قال، قد كان صاحبكم يقول ذلك؟ قال، وما تراه صاحباً لك؟ والله لقد هممت أن أضرب عنقك. ثم تحاورا، فقال له خالد، إني قاتلك. قال، وبذا أمرك صاحبك؟ قال، وهذه بعد! والله لا أقبلك" وواضح وفق هذه الرواية أن المقصود بـ"صاحبكم" ليس الرسول، أسد الغابة في معرفة الصحابة، ٢٩٦/٤.

٢- الأغاني، ١٥ / ٢٩٤.

تجب عليهم ولا بدّ من قتلهم. فرفع شيخ منهم صوته وتكلم فلم يلتفت خالد إليه وإلى مقاتله، فقدمهم فضرب أعناقهم عن آخرهم... ثم قدم مالك بن نويرة ليضرب عنقه فقال مالك: أتقتلني وأنا مسلم أصلي إلى القبلة! فقال له خالد: لو كنت مسلماً لما منعت الزكاة ولا أمرت قومك بمنعها والله ما نلت ما في مثابتك حتى أقتلك. قال فالتفت مالك بن نويرة إلى امرأته فنظر إليها ثم قال: يا خالد! بهذه قتلتني؟ فقال خالد: بل قتلتك برجوعك عن دين الإسلام وجعلك لإبل الصدقة...^١.

والملاحظ أنّ هذه الرواية تهمل ما قاله ذلك "الشيخ" في ردّه على خالد عندما اتهمه بمنع الزكاة، كما تهمل ردّ مالك، أيضاً، على هذه التهمة، وتذكر أنّ مالكاً التفت إلى امرأته عندما اتهمه خالد بمنع الزكاة! ولست أدري، هل أراد الراوي أن يبيّن عجز مالك عن دحض هذه التهمة، أم أراد أن يبيّن أنّ مالكاً رأى أنه من العبث الردّ على تهمة أدرك أنها لم تكن سوى حجّة للتخلص منه والوصول إلى امرأته! ولاسيما أنّ الرواية تضيف: "فيقال: إن خالد بن الوليد تزوج بامرأة مالك ودخل بها، وعلى ذلك أجمع أهل العلم"^٢.

ثمة رواية قد تكون ذات مغزى في تفسير ما حدث، وهي أنه لما وزّع مالك الصدقات وعلم أبو بكر وخالد والمسلمون "حنقوا على مالك، وعاهد الله خالد بن الوليد لئن أخذه ليقتلنه، ثم ليعلننّ هامته إنقيّة للقدر"^٣! وبحسب هذه الرواية فإنّ نيّة قتل مالك كانت قائمة قبل رؤيته ومحاورته، وهي تفسّر إصرار خالد على التوجه إلى بني يربوع على الرغم من توجيهات الخليفة التي كانت تنصّ على وجوب

١- الفتوح لابن الأعمش، ١٩/١، وانظر أيضاً الردّة للواقدي، ٥٩. وفي الردّة للواقدي، ٦٠، "...فالتفت مالك بن نويرة نويرة إلى امرأته فنظر إليها، ثم قال، يا خالد بهذا تقتلني". وفي الإصابة، ٣/٣٣٧، "ويروى أن خالداً رأى امرأة مالك، وكانت فائقة الجمال، فقال مالك بعد ذلك لامرأته، قتلني، يعني سأقتل من أحلك" وانظر أيضاً الأشباه والنظائر، ٣٤٥/٢، وتاريخ يعقوبي، ١٣١/٢، الأغاني، ٢٩٠/١٥.

٢- يبدو من خلال هذه الرواية أن خالداً تزوج امرأة مالك بعد مقتله مباشرة، وفي تاريخ يعقوبي (١٣١/٢)، أنه تزوجها من يومها، غير أن رواية سيف تذهب إلى أن خالداً "تركها لينقضي طهرها" انظر تاريخ الطبري، ٣/٢٧٨.

٣- تاريخ الخميس، ٢/٢٠٩، والفتوح، ١٩/١، والردّة للواقدي، ٥٩.

التوقف في بزاحة بانتظار التعليمات! وإذا صحت الرواية، فإنّ موقف خالد لم يكن بسبب "ردّة" مالك، بل بسبب موقفه الذي فهم على أنه عدم قبول بخلافة أبي بكر. بحسب الروايات التي بين أيدينا لم يكن مالك مرتدّاً، بل كان مسلماً يقيم الصلاة. وابن حبيب يذكره في كتابه "أسماء المغتالين من الأشراف في الجاهليّة والإسلام"^١ وصاحب أسد الغابة يقول بوضوح تام: "لم تعرف عنه ردّة"^٢، ولا توجد "أية إشارة في روايات المؤرخين تطعن في سلوكه حتى من باب التشكيك"^٣، كما أنه ليس في الروايات التاريخية ما يشير إلى أنه أنكر الزكاة، أو رأى فيها إتاوة تدفع لقريش، وكل ما هنالك أنه أعاد الصدقات التي كلّفه الرسول (ص) بجمعها إلى الذين جمعها منهم، ريثما تتضح الصورة السياسية في المدينة. وليس من المستبعد أن يكون موقفه تعبيراً عن اعتراضه على استخلاف أبي بكر، وهذا موقف سياسي لا يعبر عن "ردّة" ولا يستوجب القتل. ولذلك أنكر عمر بن الخطاب فعلة خالد، وقام على خالد فيه، وأغلظ له^٤، وقال لأبي بكر: "بعثت رجلاً يقتل ويعذب بالنار!"^٥، وفي رواية أخرى أنه قال لأبي بكر: "عدو الله عدا على امرئ مسلم فقتله، ثم نزا على امرأته"^٦. وفي رواية ثالثة أنّ عمر اتّهم خالداً بالقسوة، وطلب من أبي بكر أن يقتصّ منه لفعلته، وأكثر في ذلك حتى غضب أبو بكر فقال له: "هيه يا عمر! تأول فأخطأ، فارفع لسانك عن خالد"^٧، وفي رواية رابعة أنّ عمر ألحّ على أبي بكر في

١- انظر الكتاب ضمن نواذر المخطوطات، ٢٦٢/٢.

٢- أسد الغابة في معرفة الصحابة، ٢٩٤/٤.

٣- ملامح التيارات السياسية، ٢٨.

٤- الطبقات، ٢٠٣/١، وانظر الشعر والشعراء، ٣٣٧/١.

٥- فتوح البلدان، ٦٦.

٦- تاريخ الطبري، ٢٨٠/٣، وتاريخ يعقوبي، ١٣١/٢، وانظر أسد الغابة في معرفة الصحابة، ٢٩٦/٤.

٧- تاريخ الطبري، ٢٧٨/٣.

خالد أن يعزله، وقال: إن في سيفه لرهفاً، فقال أبو بكر: لا، يا عمر، لم أكن لأشيم سيفاً سلّه الله على الكافرين^١.

كما أن عبد الله بن عمر قال لخالد، وكان معه يوم مقتل مالك: يا خالد، أبعد شهادة أبي قتادة؟ فأعرض عنه. ثم عاوده، فقال: يا أبا عبد الرحمن، اسكت عن هذا، فإنني أعلم ما لا تعلم^٢. أما أبو قتادة فعاهد الله أنه لا يشهد مع خالد بن الوليد مشهداً بعد ذلك اليوم^٣.

يبدو من الروايات التاريخية أن خالداً قتل مالكاً بغير وجه حق، وقد اعترف خالد بذلك، واعتذر عنه بقوله للخليفة: "إني تأولت، وأصبت وأخطأت"، وفي رواية أخرى أنه "زعم أنه سمع منه كلاماً استحلّ به قتله، فعذره أبو بكر وقبل منه"^٤، ولم ولم تذكر الرواية ما الكلام الذي سمعه خالد من مالك حتى استحلّ قتله! وهكذا بقي الأمر غامضاً، وقد يكون أشدّ غموضاً في رواية أخرى تقول: "وكتب (أبو بكر) إلى خالد أن يقدم عليه ففعل، فأخبره خبره (خبر مالك) فعذره، وقبل منه، وعنفه في التزويج الذي كانت تعيب عليه العرب من ذلك"^٥.

وعلى أية حال، فقد ودّى الخليفة مالكاً^٦، وردّ السبي والمال، وأمر خالداً بطلاق امرأة متمم^٧. وفي ذلك دلالة واضحة على إقراره بعدم ردّته، وبخطأ خالد. ولكن الغريب - في هذه الرواية، وهي عن طريق سيف - أن الخليفة قبل عذر خالد في

١- تاريخ الطبري، ٢٧٩/٣. وانظر ما ورد في ديوان الحماسة، ٥٢٤/١، والخزانة، ٢٦/٢.

٢- طبقات فحول الشعراء، ٢٠٨/١.

٣- الفتوح لابن الأعمش، ١٩/١.

٤- تاريخ اليعقوبي، ١٣١/٢. وفي تاريخ الخميس (٢١٨/٢)، قال أسيد بن حضير لخالد، "قد قتلت مالك بن نويرة وهو مسلم، فسكت عنه خالد فلم يجبه".

٥- تاريخ الخميس، ٢٠٩/٢.

٦- تاريخ الطبري، ٢٧٨/٣.

٧- المصدر نفسه، الصفحة نفسها، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ٢٩٦/٤.

٨- تاريخ مدينة دمشق، ٢٥٦/١٦، و٢٧٤.

قتل مالك، ولكنه "عَفَه" في التزويج، ليس لعدم شرعيته، أو عدم أخلاقيته، بل لأنَّ العرب كانت "تعيب عليه!!" ومن المرجح أنَّ سيفاً أضاف حكاية "التعنيف" لإيجاد مخرج لموقف الخليفة من أفعال خالد، ولاسيما أنَّ عمر استكبر فعلة خالد، وقال له مرّة: "والله لأرجمنك بأحجارك!!" ولم يزل واجداً على مالك حتى مات^٢.

وثمة أمور كثيرة غامضة تحتاج إلى توضيح تتعلق بسلوك خالد وموقف الخليفة، فقد كان خالد يتصرف بصفته قائداً يتمتع بمطلق الصلاحية، غير عابئ بأوامر الخليفة! قال ابن عساكر: "كان خالد إذا صار إليه المال قسمه في أهل القتال ولم يرفع إلى أبي بكر حساباً. وكان فيه تقدم على رأي أبي بكر يفعل الأشياء ولا يراها أبو بكر؛ تقدم على قتل مالك بن نويرة ونكح امرأته، وصالح أهل اليمامة، ونكح ابنة مجاعة بن مرارة"^٣. لقد خالف تعليمات الخليفة في مسيره إلى بني يربوع، وخالفها في مصالحته مجاعة، على الرغم من وصول كتاب من الخليفة فيه أمره "الأَّ يُبْقِي على أحد"^٤، وعلى الرغم من اعتراض المسلمين على خالد لمخالفته الأوامر!!

وفي حين قتل مالكا بعد محاورته، وبعد إقرار مالك بالإسلام، من غير رجوع إلى الخليفة، نراه يكتفي بتوثيق عيينة بن حصن وقرّة بن هبيرة المرتدين، وإرسالهما إلى الخليفة، الذي عفا عنهما على الرغم من اعترافهما بعدم الإيمان^٥!! لم يحاسب الخليفة خالداً على أمر، على الرغم من إلحاح عمر بن الخطاب عليه في ذلك، ولم يحاسبه حتى على إحراق المرتدين^٦، على الرغم من عدم جواز

١- تاريخ مدينة دمشق، ٢٨٠/٣، والأغاني، ٢٩٥/١٥.

٢- صفة جزيرة العرب، ٢٦٣، ونوادير المخطوطات، ٢٦٣/٢.

٣- تاريخ مدينة دمشق، ٢٧٤/١٦.

٤- انظر قصة المصالحة في تاريخ الخميس، ٢١٨/٢.

٥- تاريخ الخميس، ٢٠٨/٢، وانظر تاريخ يعقوبي، ١٢٩/٢، ولكن يعقوبي لم يذكر سوى عيينة بن حصن.

٦- تاريخ الخميس، ٢٠٧/٢، ٢٠٨. والطريف أن خالداً سوَّغ التحريق بقوله، "هذا عهد أبي بكر الصديق إلى أقرؤه في كلِّ مجمع؛ إن أظفرك الله بهم فاحرقهم بالنار" انظر المصدر نفسه.

التعذيب بالنار. وربما كان ذلك من بعض الأسباب التي دفعت بكثير من الباحثين^١ إلى الإصرار على كون مالك مرتدًا، وإلى تأويل بعض أبياته الشعرية تأويلاً يتفق مع ما يذهبون إليه، على الرغم من عدم وجود أي دليل تاريخي على ردتته، وعلى الرغم من أن كل الأدلة التاريخية تبرئه من هذه التهمة!!.

لم يكن الموقف واضحاً، ولا مفهوماً، ولذلك اجتهد هؤلاء الباحثون في تجاوز هذا الغموض بإضافة توقعاتهم المؤسسة على حبهم لخالد! يقول أحد الباحثين: "وعندما اجتمع خالد بال خليفة والقائد الأعلى ناقشه التهم (هكذا) الموجهة إليه بشأن مقتل مالك بن نويرة وأصحابه، فشرح خالد موقفه للخليفة بكل صراحة ووضوح"^٢!! ولا نعلم كيف عرف الباحث أن خالدًا "شرح بكل صراحة ووضوح" مع أنه ليس في الروايات التاريخية ما يشير إلى ذلك من قريب أو بعيد! وتذهب باحثة أخرى إلى أبعد من ذلك فتقول: "فخالد بن الوليد قد حاور مالكا في سبب ردتته، فأظهر مالك ما في نفسه من الضغينة والحقد والعصبية، وأكد سبب ردتته الرئيس أي منع الزكاة عندما فرّق الصدقات..."^٣!! وليس في التاريخ ما يوحي - مجرد إحياء - بما ذهبت إليه الباحثة!! بل إن خالدًا نفسه يهدم هذا القول حين يقرّ بأنه أخطأ فيما فعل، وكذلك الخليفة حين يعلن ذلك!! وكان صاحب أسد الغابة أكثر حيادية حين قال، بعد أن استعرض بعض الروايات المتعلقة بموضوع مالك: "فهذا جميعه ذكره الطبري وغيره من الأئمة ويدل على أنه لم يرتد، وقد ذكروا في الصحابة أبعد من هذا، فتركهم هذا عجب وقد اختلف في ردتته، وعمر يقول لخالد

١- انظر مثلاً، الرثاء والصراع السياسي في صدر الإسلام، ٨١، والرثاء في الجاهلية وصدر الإسلام، ١٤٢، وشعر الرثاء في صدر الإسلام، ٥١، وشعراء الردة، أخبارهم وأشعارهم، ١٧١، وانظر قصة خالد ومتمم في، حروب الردة، لمحمد باثمیل، ١٣٢ وما بعدها.

٢- حروب الردة، ١٤٢.

٣- شعراء الردة، ١٧١.

قتلت امرأ مسلماً، وأبو قتادة يشهد أنهم أذنوا وصلّوا، وأبو بكر يردّ السبّي ويعطي دية مالك من بيت المال، فهذا جميعه يدل على أنه مسلم" ^١.

إن القراءات "التسويغية" وغير النقدية للتاريخ هي التي تقود إلى مثل هذه الاستنتاجات التي تقف عائقاً أمام فهمنا الصحيح لتاريخنا، وإن كان الدافع إليها محبة الأجداد والحرص على تقديمهم بأفضل صورة ممكنة. ذلك لأنّ أحداً من أجدادنا لم يدّع العصمة عن الخطأ. لقد كانوا بشراً، والبشر خطّؤون، وليس في ذلك ما يعيبهم، أو ينقص من أقدارهم، أو من محبتنا لهم، أو من مدى اعتزازنا بهم. وقد امتلك أجدادنا الجرأة الكافية للاعتراف بالخطأ. ومن المحبة، والوفاء لهم، أن نقندي بهم في ذلك.

أطّلنا الحديث عن قصة مقتل مالك، بعض الإطالة، ليس بدافع إصدار حكم، أو أحكام، على حادثة تاريخية، بل بدافع الوقوف على ملابسات هذه الحادثة التي تركت جرحاً عميقاً في نفس متمم، فحزن وأسرف في الحزن، حتى أثار حزنه التساؤل ^٢. ولئن كان متمم قد وقف شعره الإسلامي على رثاء أخيه، فلقد وقف حياته على بكائه، حتى لقد أفسد بكاؤه عليه كثيراً من جوانب حياته الاجتماعية؛ فيقال: إنه تزوج امرأة بالمدينة، عملاً بنصيحة عمر بن الخطاب ^٣، فلم ترض أخلاقه لشدة حزنه على أخيه، وقلة حفله بها، فكانت تنازعه وتخاصمه وتؤذيه ^٤. ويبدو أنّ زواجهما لم يستمر طويلاً، لأنّ متمماً لم يستطع الخروج من آلام حزنه على مالك. ولم يكن هذا الحزن الشديد الذي سيطر على حياة متمم بدافع المحبة وحدها، بل كان، أيضاً، بسبب الإحساس بالظلم! ويؤيد ذلك أنّ متمماً صلّى خلف أبي بكر يوماً، ثم قام فاتكاً على قوسه وأنشد:

١- أسد الغابة في معرفة الصحابة، ٢٩٦/٤.

٢- طبقات فحول الشعراء، ٢٠٩/١، والأغاني، ٢٩٩/١٥، وأنساب الأشراف، ٢٣٤/٩.

٣- المصدر نفسه. وانظر ذيل الأمالي والنوادر، ١٧٨.

٤- الأغاني، ٣٠١/١٥.

نِعَمَ الْقَتِيلُ إِذَا الرِّيحُ تَتَاوَحَّتْ تَحْتَ الْإِزَارِ قَتَلْتَ يَا بْنَ الْأُرْوَرِ
أَدْعَوْتَهُ بِاللهِ ثُمَّ قَتَلْتَهُ لَوْ هُوَ دَعَاكَ بِذِمَّةٍ لَمْ يَغْدِرِ

وأوماً إلى أبي بكر، فقال أبو بكر: والله ما دعوته ولا غدرت به^١. وهذه الرواية تبين بوضوح أنّ الخليفة لا ينفي ما يذهب إليه متمم من أنّ أخاه قتل ظلماً، ولذلك يتبرأ من ذنبه. وقد أبدى أحد دارسي الرثاء في صدر الإسلام استغرابه من قول متمم فقال: "إنا وجدناه على الرغم من نديته يتهم أبا بكر بالغدر"^٢. وكأنّ التّدين ينبغي أن يكون حائلاً دون التعبير الصريح عن الإحساس بالظلم! وعلى أية حال فقد كان الخليفة أرحب صدراً، وأكثر تفهماً لما قاله متمم، فلم يبدِ استغراباً من قوله، أو ضيقاً.

وما دار بين متمم والخليفة لا يتعارض مع ما دار بينه وبين عمر بن الخطاب؛ إذ يُروى أنّ عمر استنشد متمماً بعض ما قاله في أخيه، فأنشده، فقال بعد أن استمع إليه: "يا متمم، لو كنت أقول الشعر لسرتي أن أقول في زيد بن الخطاب مثل ما قلت في أخيك، فقال متمم: يا أمير المؤمنين، لو قتل أخي قتلة أخيك ما قلت فيه شعراً أبداً، فقال عمر: يا متمم، ما عزاني أحد في أخي بأحسن مما عزيتني به"^٣ الروايتان لا تتعارضان من حيث دلالتهما على إحساس متمم بأنّ أخاه قتل مظلوماً، ولكن بعض الدارسين ذهبوا إلى أنّ في ما قاله متمم للخليفة الثاني دليلاً

١- التعازي والمرثي، ٢٠، وانظر الكامل للمبرّد، ١٤٤٦/٣، وفيه، "ثمّ أتمّ شعره فقال... والأغاني، ٢٩٧/١٥، والتذكرة الحمدونية، ٢٤٩/٤، وتاريخ يعقوبي، ١٣٢/٢. وانظر رواية تفسر معنى البيت في شرح ديوان الحماسة للتبريزي، ٥٢٢/١، ٥٢٣، وخزانة الأدب، ٢٥/٢.

٢- محمد أبو المجد علي، شعر الرثاء والصراع السياسي والمذهبي في صدر الإسلام، ٧٨.

٣- الشعر والشعراء، ٣٣٨، وانظر الأغاني، ٢٩٩/١٥، وأنساب الأشراف، ٢٣٥/٩، والتذكرة الحمدونية، ٢٥٠/٤. وفي طبقات فحول الشعراء، ٢٠٩/١، "... قال عمر، لو كنت شاعراً لقلت في أخي أجود مما قلت في أخيك، قال، يا أمير المؤمنين، لو كان أخي أصيب مصاب أخيك ما بكيته. فقال عمر، ما عزاني أحد عنه بأحسن مما عزيتني". وفي الكامل للمبرّد (١٤٤٧/٣)، "لو علمت أن أخي صار بحيث صار أخوك...".

على اعترافه برِدَّتِه^١!! وهذا استنتاج لم تؤدِ إليه قراءة النص! ولم تبين مقدماته الروايات التاريخية، بل هو حكم جاهز لحمته وسداه الرغبة في تبرئة خالد! فالروايات مختلفة اختلافاً بيناً في ذكر ما قاله متمم، وهو اختلاف يفتح المجال لفهم أكثر من معنى. ولذلك نرجح أن يكون الدافع إلى هذا الاختلاف رغبة بعض الرواة في جعل متمم يعترف، بطريقة ما، برِدَّة أخيه!!

أما بشأن الرواية التي أثبتناها، فما الذي يمنع من أن يكون مراد متمم الإشارة إلى أن زيدا قُتل شهيداً في ساحات القتال، بينما قُتل مالك مقيداً، بطريقة بشعة، وبغير وجه حق؟! ثم ألا يحق لنا أن نتساءل عن سرِّ إعجاب عمر - وهو من هو في تشدده في الدين - بما قاله متمم في أخيه، وعدم تعليقه على كون هذا المرثي مرتداً!! ومتى كان رثاء المرتدين ينشد أمام الخليفة، ولاسيما إذا كان الخليفة عمر!! بل إن الخليفة تأثر بشعر متمم في أخيه حتى سأله أن يصفه له، في بعض الروايات^٢.

رثاء مالك

أول ما يطالعنا في رثاء متمم لأخيه مالك هذا الإحساس بالقهر المتجلي بحالة الحزن المسيطرة عليه، وهي حالة تتمظهر بتجليات مختلفة في النصوص الرثائية، ولكنها تتأسس دائماً على الإحساس الشديد بالفقد نتيجة غياب مالك الذي يبدو وكأنه كان يمثل تكتيفاً لمعاني الوجود بالنسبة إلى الشاعر. ولذلك بدأ فقْدُ مالك، بالنسبة إلى الشاعر، حدثاً استثنائياً لا ينتمي إلى حدث الفقد المتكرر على مدى الأيام والدهور. حقاً، قد نجد في هذا الرثاء ذكراً للأناس ماتوا، ولكن الشاعر لا يجعل هذا

١- حسين جمعة، الرثاء في الجاهلية والإسلام، ١٤٢، ومصطفى الشورى، شعر الرثاء في صدر الإسلام، ٥١.

٢- التعازي والمراثي، ٢١.

الذكر في سياق التأسّي، بل يضعه في سياق مختلف تماماً يزيد في عمق المأساة، بدلاً من أن يخفف- أو يسعى إلى التخفيف- من حدتها. فهو يقول، مثلاً:

لَيْنٌ مَالِكٌ خَلَى عَلَيَّ مَكَانَهُ لَفِي أُسْوَةٍ، إِنْ كَانَ يَنْفَعُنِي الْأَسَى
 كَهَوْلٌ وَمُرْدٌ مِنْ بَنِي عَمِّ مَالِكٍ وَأَيْسَارٌ صَدَقَ لَوْ تَمَلَّيْتُهُمْ رَضَى^٢
 سَقُوا بِالْعَقَارِ الصَّرْفِ حَتَّى تَتَابَعُوا كَدَّابٍ ثَمُودٍ إِذْ رَغَا بِكُرْهُمُ ضُحَى^٣
 وَهَوْنٌ وَجِدِي بَعْدَمَا كَدْتُ أَنْتَحِي عَلَى السَّيْفِ حَتَّى يَبْلُغَ الْجَوْفَ وَالْحَشَا
 رَجَالٌ أَرَاهُمْ مِنْ مَلُوكٍ وَسُوقَةٍ خَبُوا بَعْدَمَا نَالُوا السَّلَامَةَ وَالْغَنَى
 عَلَى مِثْلِ أَصْحَابِ الْبَعُوضَةِ فَاخْمِشِي، لَكَ الْوَيْلُ، حُرُّ الْوَجْهِ، وَلَيْبِكَ مَنْ بَكَى^٤

فالشاعر لا يتأسى بذكر من اختطف الموت من أقربائه، بل يستحضر ذكراهم بذكر مالك ليعمق من الإحساس بحالة الفقد التي يعانيتها! ذلك لأنه يحدثنا، فيما بعد، عما يهون وجده؛ وهو أن الناس جميعاً إلى الموت. ولكن ينبغي أن نلاحظ أنه هنا لا يتعزى عن مالك، بل يبين أن الذي منعه من قتل نفسه حزناً على أخيه، هو أن الموت مصير الناس جميعاً! وهو بهذا القول يكشف عن أن رغبة في قتل نفسه قد راودته من شدة حزنه، فلقد أخذ به الحزن كل مأخذ، حتى لم يعد يقوى على مواجهته! ولذلك لا يكف عن البكاء، بل إنه يطلب من هذه التي يخاطبها أن تخمش "حرّ الوجه" حزناً على أخيه ورفاق أخيه، ويلفت إلى أنهم وحدهم- وهم أصحاب "البعوضة"- من يستحقّ البكاء! فهو، إذن، يدعو إلى البكاء بشكل صريح وواضح. ويمكن أن يفهم "خمش الوجه" في هذا السياق- بعيداً عن الطقوس الجنائزية التي تحدثنا عنها الروايات- على أنه تعبير عن الإحساس بالذلّ والانكسار.

١- المجموع، ٨٣.

٢- المرء، جمع أمرء، وهو الشاب في أول شبابه، إذ لم تنبت لحيته بعد. الأيسار، جمع ياسر، وهو الجازر الذي يلي قسمة جزور الميسر.

٣- العقار، عقار كل شيء خياره، والصرف، الخالص من كل شيء.

٤- البعوضة، ماء لبني أسد قرية القعر (معجم البلدان، ٤٥٥/١) وبهذا الموضع كان مقتل مالك.

وإذا لم يكن الشاعر قد سمى تلك التي يطلب منها أن "تخمش الوجه" فلأن ذلك لا يعنيه، فهو لا يطلب ذلك من شخص محدد، إنه يطلبه من المجتمع، هذا المجتمع الذي ينطق بلسان امرأة، أو رفيق، أو خليل، أو عاذلة، أو عاذل... لا فرق بين أن يسمي الشاعر أحداً، أو أن يذكره بصفته، فالمهم أن يعبر عما يريد، ومن خلال هذا الفهم يمكن أن نفهم قوله لأم خالد، بغض النظر عن كونها امرأته، أو غير امرأته^١:

امراته^١:

أقول لها لَمَّا نَهتني عن البكا	أفي مالكِ تلحيني أم خالدٍ؟
ذريني فالأبك لم أنس ذكره	وإن أمرتني بالعزاء عوائدي
ذريني فكَم من صالحٍ قد رزنته	أخ لي كصدّر الهندواني ماجد ^٢

وهنا يستحضر متمم، مرة أخرى، ذكر من فقدهم من الأحبة ليهيج أحرانه بذكرهم، لا ليخفف من حدة حزنه المتصاعد على أخيه. ولذلك هو ينكر، منذ البداية، على هذه العاذلة أن تلومه على بكاء مالك. هو لا ينكر عليها أن تلومه على البكاء من حيث هو فعل دال على الحزن والجزع، لا يليق برجل مثله - ولاسيما أنه يوضح لها أن عدم البكاء لا يعني انعدام الحزن - بل ينكر أن تلومه على بكاء "مالك" بالذات، لأنه يرى في موته حدثاً استثنائياً - كما قلنا من قبل - يليق به حزن استثنائي لا يقبل اللوم، أو العزاء. وهو يرى في لوم هذه العاذلة دليل عجزها عن الإحساس بمعنى فقد الأخ؛ ولذلك لا يخبرها بما قد تكون على علم به، من أن الموت هو المصير الذي لا مناص منه، بل يحاول أن يوضح لها معاناته من خلال دفعها إلى تخيل موقفه، بتذكيرها بأن فقدتها أخوتها احتمال قائم، وغير بعيد الحدوث، في أية لحظة.

١ - البعوضة ، ٨٨ ، ٨٩ .

٢ - رزنته، نكبت به. الهندواني، يريد السيف الهندواني.

في موضع آخر يعبر الشاعر بشكل أكثر وضوحاً عن كونه يستحضر ذكر
أعزائه الراحلين لتعميق حزنه، لا للتخفيف منه، إذ يقول^١:

تَقُولُ ابْنَةُ الْعَمَرِيِّ مَالِكَ بَعْدَمَا أَرَاكَ قَدِيمًا نَاعِمَ الْبَالِ أَفْرَعَا^٢
فَقُلْتُ لَهَا طُولُ الْأَسَى إِذْ سَأَلْتَنِي وَلَوْعَةُ حُزْنٍ تَتْرُكُ الْوَجْهَ أَسْفَعَا^٣
وَقَدْ بَنَى أُمَّ تَدَاعَوْا فَلَمْ أَكُنْ خِلَافَهُمْ أَنْ أَسْتَكِينَ وَأَضْرَعَا^٤

فحزنه على من يسميهم "بني أم" يتولد من حزنه على مالك، وكأن وجود مالك كان يطغى على غيابهم، كان يملأ الوجود عليه فلا يشعر بغياب أحد؛ ولذلك لم تكن ابنة العمري تلاحظ عليه هذا الحزن، أو آثار هذا الحزن، قبل فقد مالك، بل كان "ناعم البال أفرعا". ولئن كان الشاعر، في البيت الثالث، يبدو وكأنه يحاول أن يظهر قدراً من التجلّد، فإنّ البيت الأول يوحي بنفي إمكانية ذلك، كما أنّ الأبيات التالية جاءت لتؤكد أنّ حالة الحزن قد استغرقتة تماماً. ثم إنه لم يتحدث عن صبر أو تجلّد، بل نفى أن "يستكين ويضرع"، نفى أن يستطيع مصابه أن يذلّه، والإشارة إلى الذلّ لا ترتبط بالحزن على الفقيد بقدر ما ترتبط بحادثة الفقد ذاتها، فقد قتل مالك - وهو سيّد قومه - بطريقة بشعة من قبل بعض سادات "قريش"، ولم تعاقب السلطة "القرشية" هذا القاتل، ولم يستطع الشاعر أن يفعل شيئاً إزاء موقف السلطة هذا، فلم يثار لأخيه في ظلّها. هذا أمر يؤدي إلى الإحساس بالذلّ، ولاسيما عند شاعر بدوي

١- رزته، نكبت به. الهندواني، يريد السيف الهندواني، ١١٣، ١١٤.

٢- رواية الديوان، "أراك حديثاً" وأثبتنا رواية أمالي اليزيدي والجمهرة لأنها أكثر انسجاماً مع السياق، من وجهة نظرنا. أفرعا، كثير شعر الرأس، كناية عن الشباب.

٣- اللوعة، حرارة الوجد. يقال، لاعه كذا فالتاع. أسفعا، من السّفعة، وهي سواد يضرب إلى الحمرة.

٤- تداعوا، يريد تبع بعضهم بعضاً. خلافهم، يريد بعدهم. أضرعا، من الضرع، وهو الذل والاستكانة.

سبب في ظلال قيم بدوية ترى في العجز عن الثأر ذلاً شديداً المرارة قد لا يقوى على تحمّله. و متمم يشير إلى هذا الظلم بقوله^١:

نِعَمَ الْقَتِيلُ إِذَا الرِّيحُ تَنَاطَوَحَتْ تَحْتَ الْإِزَارِ قَتَلْتَ يَا بَنَ الْأَزُورِ
أَدْعُوْتَهُ بِإِلَهِ ثُمَّ قَتَلْتَهُ؟ لَوْ هُوَ دَعَاكَ بِذِمَّةٍ لَمْ يَغْدُرِ

كما أنه يشير إليه، ويعاتب قومه الذين لم ينهضوا إلى الثأر، بعتاب لا يخلو من معنى التحريض، يقول^٢:

فَإِنْ يَكُ حَزْنٌ أَوْ تَتَابُعُ عِبْرَةٍ أَذَابَتْ عَيْبًا مِنْ دَمِ الْجَوْفِ مُنْقَعًا^٣
تَجَرَّعْتُهَا فِي مَالِكٍ وَاحْتَسَيْتُهَا لِأَعْظَمَ مِنْهَا مَا احْتَسَى وَتَجَرَّعَا^٤
أَلَمْ تَأْتِ أَخْبَارُ الْمُجِلِّ سَرَاتِكُمْ فَيَغْضَبَ مِنْكُمْ كُلُّ مَنْ كَانَ مُوجِعَا^٥

لقد تجرّع هذا الظلم لأنه لا سبيل إلى الثأر، وما يؤلمه أن قومه لم يغضبوا لمالك، لقد كان عليهم- كما يرى- أن يثأروا له. هذا ما كانت تقتضيه أعراف الجاهلية وقيمها، وهذا ما وقفت القيم الإسلامية حائلاً دونه، فخلّفت في قلبه غصة حزن لم تستطع الأيام أن تخفف من آلامها. ولذلك بدا متمم مرتبطاً بالجاهلية وقيمها في رثائه لأخيه، غير ملتفت إلى القيم الإسلامية التي كان من المفترض أن تترك ظلالها على هذا الرثاء. النظام الإسلامي ضيّع له حقاً، ما كان يمكن أن يضيع في النظام الجاهلي.

١- المجموع، ٩١.

٢- المصدر نفسه، ١١٨.

٣- العيب، الدم الطري. النقع، المجتمع.

٤- تجرّع، احتسى بمرارة وعلى مضض.

٥- المُجِلِّ، هو قدامة بن الأسود، وقد مرّ بمالك وهو قتيل فلم يوارده، ونعاه كأنه شامت(الخرزانه، ٢/٢٦).

والقول إنَّ غياب الأثر الإسلامي في شعر متمم يعود إلى عدم تأثره بالإسلام لكونه من شعراء البادية الذين كان أثر الإسلام في أشعارهم باهتاً، في أحسن أحواله، قول يتجاهل التوتر الشديد في العلاقة بينه وبين السلطة الإسلامية، بسبب موقفها السلبي من مقتل أخيه. فهذا موقف من شأنه أن يجعل الشاعر في شكٍّ من قدرة السلطة على تطبيق منظومة القيم الإسلامية التي ترفع من شأنها، لتكون نظاماً متكاملًا يضمن الحقوق. وعندما تمنع السلطة متمماً من الثأر لأخيه، ولا تقتصص من قاتله، ستبدو كأنها هي التي تحكم منظومة القيم وليس العكس، وهذا ما يفرغ تلك القيم من محتواها الحقيقي، لتبقى مجرد قيم نظريّة لا يعول عليها، وعندئذ تبدو القيم الجاهلية، التي جربها الشاعر، واختبر صلاحيتها، أكثر إغراء، وأولى بأن يتمسك بها.

لذلك كله راح متمم يرثي مالكا رثاء حاراً، ليس لكونه أخاه فحسب، بل لكونه مثلاً أعلى تتجسد فيه منظومة كاملة من القيم العليا التي كانت تحكم المجتمع العربي. متمم يبكي تلك القيم التي كان من شأنها-لو كتب لها البقاء- أن تخفف من حدة إحساسه بالفقد. ولنستمع إلى هذه الأبيات من قصيدة له قدمها ابن سلام على مرثيته^١، وقال عنها ابن قتيبة إنها "من أحسن ما قال"^٢ وحظيت بإعجاب صاحب التعازي والمرثي، فقدمها على مرثي متمم كلها^٣. يقول:

لقد كَفَّنَ الْمِنْهَالَ تَحْتَ رِدَائِهِ فَتَى غَيْرَ مِبْطَانَ الْعَشِيَّاتِ أَرْوَعا^٤
ولا بَرَمًا تُهْدِي النَّسَاءَ لِعَرْسِهِ إِذَا الْقَشْعُ مِنْ بَرْدِ السَّمَاءِ تَقَعَّعا^٥

١- طبقات فحول الشعراء، ٢٠٩/١.

٢- الشعر والشعراء، ٣٣٨/١.

٣- التعازي والمرثي، ١٣، وانظر أيضاً ص، ١٥.

٤- المجموع، ١٠٦، وما بعدها.

٥- المنهال، هو ابن عصمة الرياحي، كفن مالكا في ثوبه حين رآه مقتولاً، وكذلك كانوا يفعلون، يمرّ الرجل بالقتيل، فيلقي عليه ثوبه يستره به. غير مبطان العشيّات، لا يعجل بالعشاء، ينتظر الضيفان. الأروع، الذي إذا رأته راعك

لَبِيبٌ أَعَانَ اللَّبَّ مِنْهُ سَمَاحَةً
 تَرَاهُ كَصَدْرِ السَّيْفِ يَهْتَزُّ لِلنَّدَى
 وَيَوْمًا إِذَا مَا كَظَّكَ الْخَصْمُ إِنْ يَكُنْ
 وَإِنْ تَلَقَّه فِي الشَّرْبِ لَا تَلْقَ فَاحِشًا
 وَإِنْ ضَرَّسَ الْغَزْوُ الرَّجَالَ رَأَيْتَهُ
 وَمَا كَانَ وَقَافًا إِذَا الْخَيْلُ أَجْحَمَتْ
 وَلَا بِكَهَامٍ بَزْهُ عَنْ عَدُوِّهِ
 خَصِيبٌ إِذَا مَا رَاكِبُ الْجَدْبِ أَوْضَعَا^٢
 إِذَا لَمْ تَجِدْ عِنْدَ امْرِئِ السُّوءِ مَطْمَعَا^٣
 نَصِيرَكَ مِنْهُمْ، لَا تَكُنْ أَنْتَ أَضْيَعَا^٤
 عَلَى الْكَأْسِ ذَا قَاذُورَةَ مُنْزَبَعَا^٥
 أَخَا الْحَرْبِ صَدَقًا فِي اللَّقَاءِ سَمِيدَعَا^٦
 وَلَا طَائِشًا عِنْدَ اللَّقَاءِ مُدْفَعَا^٧
 إِذَا هُوَ لَاقَى حَاسِرًا أَوْ مُقْنَعَا^٨

بجماله وحسنه.

١- البرم، الذي لا يدخل مع القوم في الميسر، وهو ذم. وجمعه أبرام. تهدي النساء، أي ليس ممن تعطي النساء زوجه لهما في شدة الشتاء. القشع، النطع. تقعقع، سُمع له صوت لئيسه. وجعل مالكا أصلاً في الميسر، فعرسه تهدي إلى النساء، ولا تهدي النساء إلى عرسه.

٢- اللبيب، العاقل. السماحة، الجود. الخصيب، الرَّحِبُ الفِئَاءِ، السهل السخي. أوضع، أسرع، والإيضاع السير السريع. يقول إذا ما أتاه مجذب مسرع وجده خصيباً مريعاً.

٣- كصدر السيف، أراد السيف نفسه، فاجترأ بذكر الصدر. قال المبرد(الكامل، ١/٢٤٥)، "وتأويل ذلك أنه يتحرك تحرك سرور لفعل الخير". وقال المفضل(شرح اختيارات المفضل، ٢/١١٦٩)، "والمعنى أنه ينفذ في إقامة المروءة، والكشف بالعطية نفاذ السيف في الضريبة".

٤- كظك، بلغ منك غاية الغم، حتى يقطعك عن الكلام. الخصم، يقال للجمع والمفرد والمذكر والمؤنث. يكن، يعني أخاه. يريد إن كان مالك ناصر ك فلن يغلبك الخصم.

٥- الشرب، القوم يشربون. يقال للرجل الذي يتبرم بالناس ويتقدر منهم، "إنه لقاذورة" و "إنه لذو قاذورة" لسوء خلقه. المتزيع، سئ الخلق الذي يؤدي الناس ويشارهم. قال المفضل(شرح اختيارات المفضل، ٢/١١٧١)، "يقول، وإن اختلط بـ"الشرب" وهو القوم الذين يشربون- وجدته سمح الخلق، لئناً هيناً، لا يأتي بالفحشاء عليهم. بل تراه جميل العشرة، حميد الصحبة".

٦- ضرس، كدح وأثر فيهم. الصدق، الصلب. السميدع، الجميل الشجاع، المديد القامة. الطائش، الخفيف. المدفع، المدفوع.

٧- أجمعت، جنبت وكفت. وأراد بالخيال أصحابها. المدفع، المدفوع يرغب عن حضوره لجنبه.

٨- الكهام، الكليل، أي ليس سلاحه بكييل عن عدوه. البر، السلاح. الحاسر، الذي لا سلاح عليه. المقنع، لابس السلاح والأمة.

فَعَيْنَيَّ هَلَا تَبْكِيَانِ لِمَالِكٍ إِذَا أَذْرَتِ الرِّيحُ الكَنِيفَ المُرْفَعَا^١
وَهَبَّتْ شِمَالاً مِنْ تُجَاهِ أَطَايِفِ إِذَا صَادَفَتْ كَفَّ المَفِيضِ تَقْفَعَا^٢
وَاللِّشْرِبِ فابكي مالكا ولبهمة^٣ شديد نواحيه على من تشجعا^٤
وضيف إذا أرغى طروقاً بغيره وعان ثوى في القد حتى تكنعا^٥
وأرملة تمشي بأشعث محتل كفرخ الحبارى رأسه قد تظوعا^٥

تتجلى في مالك مجموعة القيم العليا التي قد تحويها كلمة "المروءة" غير أن ثمة صفتين أساسيتين يركز عليهما متم في هذه الأبيات، وفي الأبيات الأخرى من هذه القصيدة؛ هما الكرم والشجاعة. ويأتي تأكيدهما في مقابل إحساس مالك بانقائهما، ليس نسبة إلى قومه الذين لم ينصروا مالكا، فحسب، بل، بالنسبة إلى المجتمع القبلي الذي يشهد تهديم دعائمه بسكون وصمت، أيضاً. وهكذا يصير غياب مالك غياباً للمروءة في إحدى أهم تجلياتها؛ وهي إغاثة الملهوف! فلا يجد متم نصيراً له. لقد كان مالك خصيباً للمجدب، نصيراً للمظلوم، عوناً للمحتاج، سنداً للأرملة، أباً لليتيم، نديماً رائعاً للشرب؛ لبيباً، سمحاً. وبغيابه غابت تلك الخصال العظيمة كلها، وحق لمتمم، ولكل هؤلاء الذين يذكرهم، أن يبكوا مالكا، أو أن يبكوا أنفسهم بعد مالك.

١- أذرت، ألقط. الكنيف، حظيرة من شجر تجعل للإبل تقيها من البرد. المرفع، المرفوع المعلى. وإنما تذرري الرياح الكنيف من شدتها وشدّة الرد.

٢- أطايف، جبل فارد لطيف، طويل أخلق أحمر على مغرب الشمس من تنعة، وكانت تنغة منزل حاتم الطائي (معجم البلدان، ٢١٩/١).

٣- وللشرب، أي من أجلهم. البهمة، الشجاع. تشجع، تفعل من الشجاعة.

٤- في شرح اختيارات المفضل (١١٧٣/٢)، قال الأصمعي، "إذا ضلّ الرجل أرغى بغيره، أي حمله على الرغاء، لتجيبه الإبل برغائها، أو تنبح لرغائه الكلاب، فيقصد الحي". العاني، الأسير. ثوى، أقام. القد، السير من الجلد، أراد القيد. تكنع، تقبض. يعني حتى ييس القيد على جلده. وهو كناية عن الخضوع للمذلة، لأن صاحبه يتضاءل.

٥- الأشعث، المتلبّد الشعر، يريد ولدها، وقد بدت عليه آثار الفقر والجوع. المحتل، الذي أسىء غذاؤه. الحبارى، نوع من الطير. تظوع، تفرّق، أراد شعره.

وينبغي ألاّ يصرفنا ذكر متمم للشرب ومجالسه، عن غايته الأساسية، إلى البحث في مسألة التزام مالك، أو عدم التزامه، بالإسلام، لنبني على ذلك حكماً بشأن ما أثير من جدل حول ردته! ذلك أننا أمام نصّ مراوغ، نصّ فني، ولسنا أمام نصّ تاريخي. وذكر الخمر ومجالسها تقليد فنيّ درج الشعراء على استخدامه. ويمكن أن نتذكر في هذا المقام قصيدة البردة لكعب بن زهير، فقد أنشدها بحضرة الرسول(ص) وجماعة من أصحابه، وشبهه فيها ريق محبوبته بالخمر، ومع ذلك، فلم يعاتبه النبيّ الكريم(ص)، ولم يعلّق على ذلك، وكذلك فعل أصحابه الكرام. ولا ريب في أنه قبلوا ذلك منه باعتباره تقليداً فنياً جاهلياً، لا بوصفه اعترافاً منه بتقبيل المرأة وشرب الخمر! وكذلك نجد ذكراً للخمر في قصيدة لحسان بن ثابت، وهو شاعر الرسول(ص) والدعوة الإسلامية، حيث يقول في أثناء حديثه عن شعثناء^١:

وَنَشْرَبُهَا، فَتَنْتَرِكُنَا مُلُوكاً وَأُسْداً مَا يُنْهَضُهَا اللَّقَاءُ

وأعرف أنّ هذا الاستشهاد سيكون محلّ اعتراض لكثيرين ممن يقتنعون بأنّ هذه الأبيات من مقدمة القصيدة، وقد أثّرت شكوك كثيرة بشأن نسبتها إلى الإسلام، حتى لقد استقرّ في الأذهان أنها نُظمت في الجاهلية! وهي شكوك لم تؤدّ إليها القراءة الدقيقة، بقدر ما أدى إليها الإحساس بأنه لا يصحّ لشاعر مثل حسان أن يذكر الخمر التي حرّمها الإسلام في قصيدة إسلامية. ولم يكن نفي نسبة هذه المقدمة إلى قصيدة حسان الإسلامية نتيجة دراسة لها، أو بحث في بنائها الفني، بل كان حكماً خارجاً عن النص، مؤسساً على اعتقاد مسبق، وغير فني. وما أدرانا، فقد يكون هذا الاعتقاد خلف نسبة نصوص إسلامية أخرى إلى الجاهلية!! ولست أريد أن أبحث في نسبة هذه المقدمة، فلقد كفاني مؤونة ذلك باحث جادّ، فخلص إلى القول: "...

يمكن الاطمئنان إلى أن مقدمة همزية حسان هي جزء أصيل منها، على الرغم من إشكالية نسبتها إلى الجاهلية...^١.

ولا يملّ متمم من إعادة النظر في بناء صورة الإنسان النموذج، التي يمثلها مالك، فيفصل في جانب هنا ويوجز في آخر، ليعود في موضع آخر إلى التفصيل فيما أوجز فيه من قبل، والإيجاز في ما فصل، وكأنه يسعى-أو هو يسعى بالفعل- إلى إعطاء أخيه صفة الكمال المطلق. وانظر لاميته التي يقول فيها^٢:

لَئِن مَّالِكُ خَلَى عَلَيَّ مَكَانَهُ لَنَعْمَ فَتَى الْعَزَاءِ وَالزَّمَنِ الْمَحَلِّ^٣

فستلاحظ أن غياب مالك يعدّ غياباً للقيم التي يمثلها، وغياباً للرجل المثال الذي كان يشكل ضماناً لحياة أكثر استقراراً وأماناً، وكأن متمماً يريد بذلك أن يكشف عن صورة الحياة بعد غيابه! فغيابه يبدو حدثاً "كارثياً" لا يمكن بحال من الأحوال أن يجعل الحياة الإسلامية أكثر التزاماً بالدعوة الجديدة، وأكثر قرباً من الحياة "النموذج" التي جاء الإسلام ليبنيها للإنسان. ولذلك كلّه ينبغي أن يفهم هذا الرثاء في إطار الاحتجاج على مقتل مالك، وفي إطار الدعوة إلى الثأر له.

لقد كان حزن متمم على مالك شديداً، وكان مالك رجلاً يمتاز بخصال تجعل من الصعب ملء الفراغ الناتج من غيابه؛ قيل إن عمر بن الخطاب سأله يوماً: "إنك لَجَزَلٌ، فأين كان أخوك منك؟ فقال: كان، والله، أخي في الليلة ذات الأريز والأصوات والصُرَادُ، يركب الجملَ الثَقَالَ بين المَزَادَتَيْنِ الْمُتَلَوْنَتَيْنِ^٤، وَيَجْنُبُ

١- فاروق إسلام. "قلق الانتماء في همزية حسان بن ثابت الأنصاري، قراءة في توثيق النص القديم وتأويل". مجلة جامعة
جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية- سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية. المجلد، ٢٩، العدد، ٢ (٢٠٠٧) ص،
١٤٩. وانظر أيضاً ذكر الخمر في الرثاء في أبيات لمنقذ الهلالي في الوحشيات، ١٤٤. وانظر ذكر الخمر في قصيدة
للشماخ بن ضرار، ديوانه، ٤٥٦.

٢- المجموع، ١٣٢.

٣- العزاء، من اعتزى وتعزى أي انتسب. والزمن المحل، زمن الجذب.

٤- الأريز، البرد. الصُرَاد، ريح باردة مع ندى. الثفال، البطيء الذي لا يكاد ينبعث.

الْفَرَسَ الْجَرُورَ^٢، وعلية الشَّمْلَةَ الْفَلَوْتَ^٣، وفي يده الرَّمْحَ التَّقِيلَ (وفي روايات أخرى الخَطِلُ^٤)، حتى يصبح مُتَهَلِّلاً. ولقد أُسِرَتْ مرّةً في بعض أحياء العرب فمكثتُ فيهم سنة أحدثهم وأغنيهم، فما أطلقوني. فلما كان بعدُ، وقف عليهم مالك في شهر من الأشهر الحرم، فحادثهم ساعة ثم استوهبني منهم، وهم لا يعرفونه، فوهبوني له، فعلمت أن ساعة من مالك أكثر من حول مني"^٥.

ويروي أبو الفرج حكاية الأسر، فيشير إلى جمال مالك وظرافته، وحسن تصرفه^٦، كما أن ثمة روايات أخرى قد تعمدت أن تلتفت إلى هذا الجمال، ففصلت القول فيه بعض التفصيل، كما نجد في هذه الرواية التي تذهب إلى أن متمماً سُئِلَ: "أين كان مالك منك؟ فقال: ساعة واحدة -والله- من مالك مثل حول مني مجرم. قيل: وكيف ذلك؟ قال: أسرت في بعض أحياء العرب، فأقمت حولاً مجموعة يداي إلى عنقي، فلما كان الشهر الحرام جاء مالك لفدائي، فلما أشرف على الحيّ ونظروا إلى جماله لم يبق فيهم قاعد إلا قام، ولا ذات خدر إلا كشفت سجع خدرها لتتظر إليه، فلما كلمهم وسمعوا فصاحته وبيانه أطلقوني له بغير فداء، فعلمت أن ساعة منه خير من حول مني"^٧.

١- المزدتين المتلوتين، يريد المشدودتين على جنبي البعير.

٢- الجرور، الذي لا يكاد ينقاد مع من يجنبه، وإنما يجرّ الحبل.

٣- الشملة، كساء أو معزر يتشح به، الفلوت، الصغيرة التي لا ينضم طرفها ولا تكاد تثبت على لابسها.

٤- قال الجاحظ في البيان والتبيين (٢٥/٣)، "ولا يحمل الرمح الخَطِلُ منهم إلا الشديد الأيد (القوي) والمُدِلُّ بفضل قوته عليه، الذي إذا رآه الفارس في تلك الهيئة هابه وحاد عنه..."

٥- التعازي والمراثي، ٢١، وانظر الأشباه والنظائر، ٣٤٦/٢. وانظر الحديث باختصار، وبعض الاختلاف في الألفاظ، في البيان والتبيين، ٢٥/٣، والكمال للمبرّد، ١٤٤٨/٣، والعقد الفريد، ١٣٦/١، والتذكرة الحمدونية، ٢٠/٤، ومعجم مقاييس اللغة، ١٧/١ مادة "أف".

٦- الأغاني، ٣٠٠/١٥، ٣٠١.

٧- الأشباه والنظائر، ٣٤٦/٢.

وينبغي ألاّ تؤخذ هذه الروايات من حيث هي وثائق تاريخية، بل من حيث هي صياغة فنية لحدث تاريخي- أو قد يكون تاريخياً!- تعبّر عن صورة مالك كما استقرّت في الوجدان الجمعي، وهي لذلك تعكس التعاطف معه، وتدلّ على عدم اقتناع برذته، وعلى إحساس بلا شرعية الطريقة التي قتل بها. ويبدو بوضوح أنّ الاختلاف بين هذه الروايات يرجع إلى تنوّع أساليب الرواة في صياغة الحدث وفقاً لما كانوا يرون أنه أكثر تأثيراً في جمهور المتلقين. أما الحادثة نفسها فقد لا تعدو أن تكون أكثر مما رواه ابن عبد ربّه: "غزا قيس بن شرقاء التغلبي فأغار على بني يربوع، فأسر متمم، فوفد مالك على قيس في فدائه فقال:

هَلْ أَنْتَ يَا قَيْسُ بْنُ شَرْقَاءَ مُنْعِمٌ أَوْ الْجَهْدُ إِنْ أُعْطِيَتْهُ أَنْتَ قَابِلُهُ؟

فلما رأى وسامته وحسن شارته قال: بل منعم، وأطلقه^١.

الماضي والحاضر

يبدو مالك، من خلال شعر متمم، كأنه حياة بأكملها، حياة تشعّ بالمحبة والطمأنينة، كان متمم يتلمّس فيها قيم وجوده "الأونطولوجية" التي لا سبيل إلى الاستعاضة عنها بغيرها، ولذلك بدت له حياته بعد فقد مالك ضرباً من العبث المرّ الذي تفقد فيه الذات مسوّغات وجودها، فيتساوى عندها الوجود والعدم. فيقول^٢:

وَلَسْتُ أَبَالِي بَعْدَ فَقْدِي مَالِكاً أَمْوَتِي نَاءً أَمْ هُوَ الْآنَ وَقَعُ

فقد مالك جعل الشاعر غريباً، وحيداً، وفي غربة وحدته لم يكن أمامه إلاّ أن يتأمل في وجوده الباطني الذي كان غائباً خلف ألوان الطموحات والأمانى. وفي مثل هذا الموقف يطفو الماضي على سطح الحاضر، ويمثّل بين يدي صاحبه، ويبدو

١- العقد الفريد، ٢١٧/٥.

٢- المجموع، ١٠٥.

بمنزلة الشيء الوحيد الذي يمتلكه، لأنه الشيء الذي يعبر عما هو كائنه^١. ولكن ماضي متمم لم يكن منفصلاً عن أخيه مالك، بل كان يدور في فلكه، ويستمد قيمته من خلاله. وهو لم يحدثنا في أشعاره الإسلامية عن أية إنجازات حققها بمفرده في الماضي. ولذلك لم يكن بوسعنا أن نستعين بغنى الماضي على مواجهة إقفار الحاضر، بل إن إحساسه بغنى الماضي الذي كان يستحضره راح يعمق إحساسه بإقفار الحاضر الذي يعيشه. يقول^٢:

وَإِنِّي مَتَى مَا أَدْعُ بِاسْمِكَ لَا تُجِبُّ وَكُنْتَ جَدِيرًا أَنْ تُجِيبَ وَتُسْمَعَا^٣
 وَكَانَ جَنَاحِي إِنْ نَهَضْتَ أَقْلَنِي وَيُحَوِي الْجَنَاحَ الرِّيشَ أَنْ يَنْزِعَا^٤
 وَعَشْنَا بَخِيرٍ فِي الْحَيَاةِ وَقَبَلْنَا أَصَابَ الْمَنَايَا رَهْطَ كِسْرَى وَتُبَعَا^٥
 وَكُنَّا كَنَدْمَانِي جُدَيْمَةَ حَقْبَةَ مِنْ الدَّهْرِ حَتَّى قِيلَ لَنْ يَتَّصِدَعَا^٦
 فَلَمَّا تَفَرَّقْنَا كَأَنِّي وَمَالِكَا لَطُولِ اجْتِمَاعٍ لَمْ نَبْتَ لَيْلَةً مَعَا^٧
 فَإِنْ تَكُنَ الْأَيَّامُ فَرَقْنَ بَيْنَنَا فَقَدْ بَانَ مَحْمُودًا أَخِي حِينَ وَدَعَا^٨

ذهب الأخ والنصير بذهاب مالك، وصار الاستجداد به يرتد على صاحبه صدى متقللاً بالحسرة. كان مالك جناح متمم، وبفقدته انعدمت قدرته على الفعل! هذا ما تكشف عنه المفارقة التي يقيمها بين الماضي "السعيد" والحاضر "الحزين"، ماضي "حضور" مالك و حاضر "غيابه". الحاضر المتقل بشدة الإحساس بالزمن نتيجة

١- انظر مشكلة الإنسان، ٨٤.

٢- المجموع، ١١١.

٣- يقول، "كنت إذا أجبته أسمعته المستغيث بك، ولم توجه إلى إعادة". تجيب وتسمعا، المعنى فيه تقديم أي، تسمع تسمع وتجييب" (شرح اختيارات المفضل، ٢/ ١١٧٦)

٤- ندمانا جذيمة، هما مالك وعقيل ابنا فارح بن كعب بن القين، وجذيمة، هو جذيمة بن الأبرش، وكان يسمى الوضاح الوضاح لبرص كان به (انظر التعريف في جمهرة الأنساب، ٣٧٩، والأغانى، ٣٠٥/١٥، و ٣١١). وكان مالك وعقيل قد ردا على جذيمة ابن أخته عمرو بن عدي، فحكهما فاخترتا منادمتها، فكانا نديميه دهرًا ثم قتلتهما.

٥- لطول اجتماع، أي بعد طول اجتماع، وقد تأتي اللام بمعنى بعد.

الفقد. فالسعادة "تخلق ضرباً من الانسجام بين الذات والعالم الخارجي"^١، وهذا ما جعل الشاعر في غفلة عن الإحساس بالزمن، فتوهم أنه بمنأى عن الصيرورة، وبمنجى من الموت الذي يصيب الآخرين. وبغياب مالك انتفى الانسجام ليقوم التنافر بين الشاعر والحاضر، وهذا ما جعل الشاعر أشدّ تعلقاً بالماضي، ويمكن أن نلاحظ ذلك من خلال تكرار الفعل الناقص، ومن خلال تحولات الضمير في خطابه، وطغيان ضمير الجماعة الرابط بينه وبين أخيه، والذي لم يقطعه سوى الموت في الشطر الأخير حيث يعود الضمير إلى مفرد. هذا التعلق بالماضي هو تعلق بمالك، ولذلك راح متمم يجتهد في بثّ الحياة في هذا الماضي من خلال الدعوة بالسقيا لقبر مالك^٢:

أَقُولُ وَقَدْ طَارَ السَّنَا فِي رَبَابِهِ وَجَوْنٍ يَسْحُ الْمَاءَ حَتَّى تَرِيْعَا^٣
 سَقَى اللهُ أَرْضاً طَهَا قَبْرُ مَالِكِ ذَهَابَ الْغَوَادِي الْمُدْحَنَاتِ فَأْمَرَعَا^٤
 وَأَثَرَ سَيْلِ الْوَادِيَيْنِ بَدِيمَةٍ تُرَشِّحُ وَسَمِيًّا مَنِ النَّبْتِ خَرَوْعَا^٥
 فَمُجْتَمِعِ الْأَسْدَامِ مِنْ حَوْلِ شَارِعِ فَرَوَى جِبَالَ الْقَرْنَتَيْنِ فَضَلْفَعَا^٦
 فَوَاللهِ مَا أَسْقَى الْبِلَادَ لِحُبِّهَا وَلَكِنِّي أَسْقِي الْحَبِيبَ الْمُودَعَا

١- مشكلة الإنسان، ٣٥.

٢- المجموع، ١١٢، ١١٣.

٣- السنا، ضوء البرق. الرباب، السحاب، أو الذي تراه دون السحاب كاللدخان والغمام. الجون، السحاب الأسود. الأسود. يسح، يصب. ترّيع، تراجع، أو جاء وذهب.

٤- الذّهاب، جمع ذهبة، وهي السحابة الغزيرة. الغوادي، التي تغدو بالمطر. المدحجات، السحاب التي تأتي بالدّجن، والدّجن تغطية السماء بالسحاب. أمرع، أخصب وأتى بالخصب. ومطر مريع، إذا كان فيه خصب.

٥- أثر، من الأثرة. الديمة، المطر يدوم أياماً بلا ريح فيكون مستويّاً، وهو أحمد المطر. ترشّح، ترّبي وتنبّت، أخذ من النماقة الراشح وهي التي معها ولدها. الوسمي، أول مطر يقع على الأرض، وهو الذي يسم الأرض بالنبات. الخروع، اللين من كلّ شيء.

٦- الأسدام، جمع ماء سُدْمين وهي الماء المندفنة. وأصل التسديم، الخبس. شارع، جبل من جبال الدهناء (معجم البلدان، البلدان، ٢١١/٥). القرنتان، بين البصرة واليمامة في ديار بني تميم، عندها أحد طرفي العارض جبل اليمامة، وبينه وبين الطرف الآخر مسيرة شهر. ضلفع، هضاب على يسار ضريّة، مما يلي الشمال (صفة جزيرة العرب، ١٤٤).

وليست الدعوة بالسقيا هي ما يلفت في هذه الأبيات، بل الدعوة بشمولية هذه السقيا لتعمّ مناطق متباعدة، والتركيز على أن يكون هذا المطر قادراً على إخصاب تلك الأراضي وبعث الحياة فيها من جديد. وكأنّ متمماً لا يدعو بالسقيا لقبر مالك، بل يدعو لكلّ بقعة أرض وطئها مالك، أو كأنه كان يرى أنّ قبر مالك يمتدّ في الأرض مساحة تليق بمكانته في الحياة، ولذلك فالأرض كلها قبر لمالك، وبعث الحياة فيها هو بعث لمالك الذي لا ينبغي أن يستحيل حضوره الماضي إلى غياب مطلق في الحاضر. ومتمم يكشف في البيت الأخير أنه لا يسقي "قبر مالك" وحده، بل يسقي "البلاد" كلها، ولكنه يفعل ذلك من أجل مالك وحده، وكأنّ صلته العاطفية بالعالم قد انقطعت بموت مالك الذي كان يمثل في نفسه هذا العالم في الماضي. وهكذا تكون الدعوة بالسقيا دعوة لتجدد الماضي، وتعبيراً عن إفقار الحاضر.

وكما دعا الشاعر بالسقيا للأرض كلها من أجل قبر مالك، فإنه بكى الموتى جميعاً ببيكائه مالكا، ولم يرَ في قبورهم سوى قبر له. كان فقد مالك حدثاً رهيباً في حياة الشاعر، قذفه في يَمّ من الحزن، فانتسعت الدوائر من حول المركز لتحتوي الأخوة والأحبة من المفقودين، ثم لتحتوي الأبعد فالأبعد، حتى غدا الفقد شاملاً، وغدا كلّ قبر هو قبر مالك، لا فرق بين قبر وآخر، أو لنقل غدت الأرض كلها قبراً واحداً لمالك له تجليات مختلفة متنوعة. وبذلك يرتقي مالك من كونه أخاً للشاعر إلى كونه رمزاً للإنسان بشكل عام، وهذا ما يجعل الأبيات التالية "تتجاوز حدود النكل الفردي إلى الشعور بأنّ الفناء يسري في صميم الحياة، وأنّ الأرض جميعاً- في إحساس الشاعر- قبر واحد هائل"^١. قيل^٢: إن متمماً قدم العراق فأقبل لا يرى

١- في الشعر الإسلامي والأموي، ٥٧.

٢- أمالي القالي، ١/٢، وديوان المعاني، ١٧٤/٢. وشرح حماسة أبي تمام للأعلم الشنتمري، ٥٣٣/١.

يرى قبراً إلا بكى عليه، فقيل له: يموت أخوك بالملا وتبكي أنت على قبر بالعراق!
فقال^١:

لَقَدْ لَامَنِي عِنْدَ الْقُبُورِ عَلَى الْبُكَاءِ رَفِيقِي لِتِذْرَافِ الدَّمُوعِ السَّوَاْفِكِ^٢
فَقَالَ أَتَبْكِي كُلَّ قَبْرِ رَأَيْتَهُ لِقَبْرِ ثَوَى بَيْنَ اللَّوَى وَالِدَكَاكِ^٣
أَمِنْ أَجْلِ قَبْرِ بِالْمَلَا أَنْتَ نَائِحٌ عَلَى كُلِّ قَبْرِ أَوْ عَلَى كُلِّ هَالِكِ
فَقُلْتُ لَهُ إِنَّ الشَّجَا يَبْعَثُ الشَّجَا فَدَعْنِي، فَهَذَا كُلُّهُ قَبْرُ مَالِكِ^٤

وقبل كل شيء ينبغي ألا نشغل أنفسنا بأمر هذا الرفيق الذي أوجده الشاعر ليعبر عما في داخله، فقد يكون هذا الرفيق حقيقياً، أو متوهماً، ولكنه في الحالين لم يكن يختلف كثيراً عن العوازل الأخرى، إنه رمز للمجتمع الذي لم يكن يرضى ببكاء متمم الدائم على أخيه. المجتمع الذي كان يريد من متمم أن ينسى مصابه، وينسى مالكا. ومتمم، الذي لم يستطع أن يدفع عن أخيه الموت، كان يجتهد في أن يدفع عن ذكره النسيان، كان يريد أن يخلد ذكره، على الأقل، وكأنه كان يسعى من أجل إبقاء تلك المأساة حيّة في ضمائر الناس. ولذلك يعبر متمم عن الرفيق هذا الاهتمام، ويروي الحوار الذي دار بينهما.

١- المجموع، ١٢٥.

٢- السوافك، جمع سافكة، من السّفك؛ وهو صبّ الدمع. قال المرزوقي، (وقوله "لتذراف الدموع السوافك" أي من أحله بعد قوله، "ما البكا" فيه من الفائدة المتجددة التنبيه على إجابة الدموع له، وانصباها بحسب مراده حتى لا جهود من الحجاج(وهو العظم المستدير حول العين) في شيء من الأوقات، ولا توقف من السيلان في حال من الحالات، وليس كلّ باك بهذه الصفة).

٣- اللوى، اسم موضع، وفي اللغة هو مُسْتَرَقّ الرمل ومنقطعه. قال التبريزي، وذكر بعضهم أن اللوى ها هنا يقع على أماكن مختلفة، ولذلك جاز أن يترتب عليه فالدكادك" (ديوان الحماسة، ١/٥٢١). والدكادك، جمع دكدك، وهو المستوي من الأرض.

٤- يبعث الشجا، يهيج ويثير.

وأول ما يلفت النظر إصرار هذا الرفيق على "تتكبير" لفظة "قبر" وإصرار متمم على تعريفها! الرفيق يريد أن ينظر إلى موت مالك من حيث هو موت "فرد" يندرج في إطار ظاهرة الموت الطبيعية المتكررة، والتي ينبغي تجاوزها. ومتمم ينظر إليه من خلال التحول التاريخي بين زمنين؛ جاهلي وإسلامي، فيراه موتاً جماعياً! وحدثاً غير عادي، ويستحق الوقوف والتأمل. وقد انتبه القدماء إلى ما في قوله "فهذا كلّ قبر مالك" من ثراء في الدلالة وأداء المعنى، فقال أبو هلال العسكري: "يقول: قد ملأ الأرض مصابه عظماً فكأنه مدفون بكلّ مكان. وهذا أبلغ ما قيل في تعظيم الميت"، وقال المرزوقي: إن الشاعر يقول لصاحبه: "ليس لي في قبر مالك إلاّ مثلُ مثل ما لي في القبور كلّها"^٢. وكذلك قال التبريزي: "كأنه يريد أن مالكا من عظم شأنه كأنه قد ملأ الأرض، فكأن الأرض كلها مكانه، وكل قبر قبره"^٣.

لم يعد في الحاضر سوى الحزن، ومتمم يعبر عن هذا الحزن بطرق مختلفة ولكنها بمجملها جاهلية النسب. ولذلك نراه يتكئ على الرموز نفسها التي اتكأ عليها أسلافه من الشعراء، والتي سيتكئ عليها الشعراء من بعده زمناً طويلاً. ومن ذلك قوله^٤:

فلو أنّ ما ألقى يُصَيَّبُ مُتَالِعاً أو الرُّكْنَ من سَلَمَى إِذَا لَتَضَعَّضَعاً
وما وَجَدُ أَطَارِ ثَلَاثِ رَوَائِمِ لَتَضَعَّضَعاً
يُذَكِّرُنَ ذَا الْبَيْتِ الْحَزِينِ بَبْنِهِ أَصْبِنَ مَجْرّاً مِنْ حُورٍ وَمَصْرَعاً

١- ديوان المعاني، ١٧٤/٢.

٢- شرح ديوان الحماسة للمرزوقي، ٧٩٧/٢.

٣- شرح ديوان الحماسة للتبريزي، ٥٢١/١.

٤- المجموع، ١١٦، ١١٧.

٥- متالع، جبل بناحية البحرين بين السّودة والأحساء (معجم البلدان، ٥٢/٥). سلمى، أحد جبلي طيئ، وهما أحأ وسلمى، وهو جبل وعر (انظر المصدر نفسه، ٢٣٨/٣). تضعضع، تَهْدَم.

٦- الأطار، جمع ظئر، وهي العاطفة على غير ولدها المرصعة له، من الناس والإبل. الروائم، جمع رائم، وهنّ الحجات اللاتي يعطفن على الرضيع. الحوار، ولد الناقة، وجمعه حيران. اجر والمصرع، مصدران من الجرّ والصرع.

إذا شَارِفٌ مِنْهُنَّ قَامَتْ فَرَجَّعَتْ إذا حَنَّتِ الأُولَى سَجَعْنَ لَهَا مَعَا^١
 بِأَوْجَدٍ مِنِّْي يَوْمَ قَامَ بِمَالِكِ حَنِينًا فَأَبْكَى شَجْوَهَا الْبَرْكَ أَجْمَعَا^٢
 مُنَادٍ بَصِيرٌ بِالْفِرَاقِ فَاسْمَعَا^٣

فلو أن ما بمتتم من حزن أصاب الجبال لتهدمت! هو يحاول أن يقرب إلى مشاعرنا وأحاسيسنا شدة حزنه ومعاناته، وليس أنأى عن فهم مراده من القول إنه يبالغ! والحكم بـ"المبالغة" على هذا النص، وعلى نصوص كثيرة أخرى - لمتتم وغير متمم - حكم متسرّع لا يخلو من دلالة على العجز عن الإحساس بمعاناة الشاعر! وبدلاً من أن نتمسك بـ"المبالغة" بحجة أنه من غير المعقول أن تكون قدرة الشاعر على التحمل أكبر من قدرة الجبال، علينا أن نحاول تصوّر شدة الوجد الذي يحدثنا عنه، وينبغي ألا يفوتنا أننا أمام "شعر" والشعر لا يخضع للمنطق الذي يتيح لنا أن نقيم مقارنة بين قدرة الشاعر وقدرة الجبال!

وحتى يقرب متمم إلى أذهان المتلقين ما يريد قوله، ويجعلهم أقدر على تصوّر مدى حزنه، يعتمد إلى هذه الصورة الاستدارية التي يستمد مفرداتها من الواقع، ويغذيها بقدر كبير من الشحنات العاطفية؛ وهي صورة الأظار الثلاث اللواتي فقدن حواراً، فهنّ على الدوام يبكينه بحرقة، فيبكي حنينهنّ الحزين النوق جميعاً. ومتمم لا يذكر ابن مَنّ منهنّ هذا الحوار، ولا يبيّن سبب فقدانه، ولكنه يبيّن أنهنّ كنّ على درجة واحدة من الحزن عليه، وأنّ حنين أية واحدة منهنّ كان يبكي ألفاً من الإبل، لما كان يحمله حنينها من شدة إحساس بالفجيعة. والعدد "ألف" يراد به، هنا، الشمولية لا التحديد، وهو لذلك يشمل الإبل جميعاً. ومتمم يقول: إنّ وجد الأظار اللواتي هذا شأنهنّ ليس بأشدّ وجداً مني يوم أعلن قتل مالك. ولكن تفصيل متمم في

١- البتّ، الحال والحزن (اللسان، بث). حنّت، الناقّة صوّتت شوقاً إلى ولدها(اللسان، حن).

٢- الشارف، المسنة من الإبل، وإنما خصّها لأنها أرقّ من الفتية، لبعث الشارف عن الولد. البرك، الألف من الإبل.

٣- بأوجد، بأشدّ وجداً.

هذه الصورة يوحي بأنه أراد أن يقول أكثر من ذلك، أو لنقل إنَّ الصورة التي يرسمها تقول أكثر من ذلك. متمم يريد أن يعبر عن مرارته من خلال بناء مفارقة بين عالم الحيوان المتعاطف بعضه مع بعض، والقادر بعضه على أن يشعر بأوجاع بعض، وعالم البشر الذي يبدو أقلَّ تعاطفاً وتضامناً من ذلك، إذ انصرف عن حزن متمم ولم يشعر بأوجاعه! ويؤيد ذلك أن جميع الروايات - باستثناء رواية الخالدين - تروي هذه الأبيات بعد الأبيات السابقة^١:

أَلَمْ تَأْتِ أَخْبَارُ الْمُحِلِّ سَرَاتِكُمْ فَيَغْضَبَ مِنْكُمْ كُلُّ مَنْ كَانَ مُوجِعًا
بِمَشْمَتِهِ إِذْ صَادَفَ الْحَتْفَ مَالِكًا وَمَشْهَدِهِ مَا قَدْ رَأَى ثُمَّ ضَايِعًا

فتمتم، من خلال الصورة السابقة، لا يعبر عن حزنه على مالك بقدر ما يعبر عن خيبته من قومه الذين صمتوا عن مقتل أخيه، وعجزت مرثيته فيه عن أن تيقظ فيهم عصبيتهم القديمة، مع أنهم على معرفة بمقامه ومكانه ونسبه، وعلى معرفة بما أصابه من ظلم!

وفي موضع آخر يتكئ متمم، في التعبير عن حزنه، على الحمام، ولكنه، مرة أخرى، يوظفه بالطريقة التي تعبر عما يريده ولا يستطيع قوله. يقول^٢:

إِذَا رَقَاتُ عَيْنَيَّ ذَكَرْتَنِي بِهِ حَمَامٌ تَنَادَى فِي الْعُصُونِ وَقُوعٌ^٣
دَعْوَنَ هَدِيلاً فَاحْتَرَنْتُ لِمَالِكٍ وَفِي الصَّدْرِ مِنْ وَجَدٍ عَلَيْهِ صُدُوعٌ^٤

فقوله "دعون هديلاً" لا ينبغي أن يفهم بعيداً عن الأسطورة التي فسّر بها العرب تسمية صوت الحمام بهذا الاسم. قال صاحب اللسان: "وقال بعضهم: تزعم الأعراب

١ - بأوجد، بأشدّ وجداً، ١١٨.

٢ - المصدر نفسه، ١٠٣.

٣ - رقأت، ذهب دمعها وانقطع. والعرب تدعو بهذا الحرف، فتقول، لا رقا لله دمعك.

٤ - الهديل، ذكر الحمام، ويقال، صوت الحمام. احتزنت، افتعلت من الحزن. الصدوع، الشقوق.

في الهديل أنه فرخ كان على عهد نوح، عليه السلام، فمات ضيعةً وعطشاً، فيقولون إنه ليس من حمامة إلا وهي تبكي عليه^١. مالك، أيضاً، مات "ضيعة" بمعنى ماء، وهذا ما يحزن متمماً. فالشاعر لا يهيج أحزانه صوت الحمام الحزين، وهو ليس في حاجة إلى ما يهيجه وفي صدره "صدوع" من وجده على أخيه! بل يهيج أحزانه كون الحمام تبكي ذلك الفرخ الذي مات منذ زمن بعيد، وهي لم تره، ولم تعرفه، بل وتدعوه أيضاً- وينبغي أن نأخذ هذه اللفظة بالحسبان، فهو لم يقل "بكين" مثلاً- وكأنها تريد أن تبعثه من جديد! بينما يبكي أخاه مالكاً وحده، من غير مشاركة الناس الذي نسوه، وكأنه لم يكن بالأمس سيّداً فيهم. ويرجح هذا قوله في بداية القصيدة:

أرقت ونام الأخلاء وهاجني مع الليل هم في الفؤاد وجيع^٢
وهيج لي حزناً تذكر مالك فما نمت إلا والفؤاد مروغ^٣

ففهم "الأخلاء" في هذا السياق على أنهم "من لا هم لهم" يذهب بنضارة قول الشاعر، ويقلل إلى حدّ كبير من معنى الحزن الذي يرمي إلى تصويره؛ لأنّ قصر النوم على الأخلاء يعني أنّ المهمومين جميعاً في حالة يقظة، وهم بذلك يتساوون مع الشاعر، في حين أنه يريد أن يبيّن تفرّده بالهم، وتفرّده بالأرق. الأخلاء، ها هنا، الناس جميعاً، حتى المهمومين منهم، لأنّ أيّ هم لا يعدّ همّاً، من وجهة نظر متمم، إذا ما قيس بهمّه! الناس جميعاً أخلاء نيام، ومتمم وحده أرق حزين. هكذا يعيش متمم في غربة مرّة، ليس لغياب أخيه فحسب، بل لغياب النصير، أيضاً. لقد صدمه موت أخيه مرّة، ولكن الناس صدموه مرّات.

١- اللسان، "هدل".

٢- الأخلاء، جمع خلي، وهو الذي لا هم له. وجيع، موحج، فعيل بمعنى مُفْعِل.

٣- المروع، الفرع، مفعول من الرّوع.

الجانب الفني

أول ما يلاحظ على قصائد رثاء متمم خلوها من المقدمات، فلم يكن هذا الشاعر مشغولاً بالبناء الفني بقدر ما كان مشغولاً بالتعبير عن حزنه وآلامه، وكأنه كان يشعر أنّ الانصراف إلى الحديث عن أي موضوع، سوى حزنه، هو انصراف عن مالك نفسه. وهكذا كان يبدأ بالحديث عن حزنه وينتهي به، وبين البدء والختم يصور مالكا، ويعيد تصويره، من غير أن يعرّج على أي موضوع آخر. ولا غرو في ذلك، وهو الذي وقف شعره الإسلامي كله على بكاء مالك، وقضى حياته الإسلامية كلها في الحزن عليه.

لم يكن متمم في رثائه يسعى من أجل بناء لوحات شعريّة تعبّر عن كون الموت مصيراً يقينياً وحيداً لا مناص منه، ولم يكن مهموماً باستخلاص العبر في هذه المسألة، كما كان أسلافه يفعلون "ومن عادة القدماء أن يضربوا الأمثال في المراثي بالملوك الأعزة، والأمم السالفة...".^١ متمم لم يكن يتعزى عن أخيه -خلاقاً لما يذهب إليه بعض دارسي الرثاء في صدر الإسلام^٢ - بل كان يجتهد في تصوير حجم الفاجعة التي ألمّت به، وبالمجتمع، بفقد مالك. كان "يصور الموقف العام برمته، ويعرض لمناقب المرثي، فيضع العلة من دوام بكائه عليه، ومشاركة الناس له في أحزانه. وهذا مذهب فني ركن إليه الرثاء قبله، لكن متمماً قدمه مفصلاً بصورة دقيقة وكثيرة تظهر براعة الشاعر من جهة، وتبرز شخصية أخيه من جهة أخرى"^٣. كان يجتهد في أن يصوّر فقد مالك كارثة إنسانية، ويدأب من أجل لفت أنظار الناس إلى ذلك، من خلال تأكيد المكانة التي كان يشغلها مالك بصفته الرجل

١- العمدة، ٢/ ١٥٠.

٢- يقول مصطفى الشورى، "الشاعر يظهر جلده وصره على فقدته لأخيه، ويعزي نفسه بما أصابت المنايا من الملوك والأقيال!! انظر شعر الرثاء في صدر الإسلام، ٥١.

٣- الرثاء في الجاهلية و صدر الإسلام، ٢٢٩.

الوحيد الذي كان يمثّل تجسيداً لمنظومة القيم الاجتماعية العليا التي يتطلع إليها الناس، وبصفته المثل الأعلى الأخلاقي الذي يربط بينهم.

الصورة الأولى التي انشغل متمم برسمها هي صورة مالك، وهي صورة كبرى تتكون من مجموعة كبيرة من الصور الجزئية المتتالية في القصيدة الواحدة، أو الموزعة في مجموعة القصائد، والتي تدلّ كلّ واحدة منها على خصلة من خصاله التي تتجلّى عند الحاجة الشديدة إليها، تلك الحاجة التي تكشف عن انعدامها عند غير مالك. ومتمم بذلك يريد أن يعطي مالكاً ميزة التفرد في تلك الصفات، أو بلوغ أعلى درجاتها التي لا يبلغها غيره ممن يتحلّون بها. وتلك الصور الجزئية صور حسية ومعنوية، تختلف خطوطها وألوانها، ولكنّ معانيها الأساسية تبقى واحدة. وهذا ما أدى إلى تكرار في المعاني، وإن اجتهد الشاعر في التغلب عليه من خلال التنويع في الألوان والظلال، ومن خلال ما كان يضيفه على تلك الصور من مشاعر وأحاسيس. والصفة التي يهتمّ بها متمم هي كرم مالك، وهو يعبر عنها بأكثر من صورة؛ بالنازليين حول بيته ليقينهم بكرمه، وبالذين يتبعونه لإيمانهم بأنه مأمّن من الجوع، وبالضيف الذي يحلّ به فيأمن الجوع والخوف^١. هي صور مختلفة تعبر عن معنى واحد، أو هو معنى واحد يتجلى بصور مختلفة.

فتمتم لم يكن يملّ من تكرار الحديث عن صفات مالك، ولم يكن دائماً يفصّل القول في كلّ منها، بل كان يوجز في بعض الأحيان حتى ليبدو قوله سرداً سريعاً لتلك الخصال، وكأنه كان يخشى أن تغرب لحظة الإبداع قبل أن ينتهي من ذكر ما يرغب في ذكره^٢.

نجد إضافة إلى التكرار في المعاني تكراراً في الألفاظ، وهذا الأسلوب لا يعدّ جديداً؛ إذ نجد له نظائر في الشعر الجاهلي، وفي شعر بعض شعراء صدر الإسلام، كأبي ذؤيب الهذلي، ولكنه تجلّى بصورة أوضح وأنضج في شعر متمم، قبل أن

١- المجموع، ١٠٣، ١٠٤.

٢- المصدر نفسه، ١٣٢.

تتحقق سماته الكاملة في أشعار الحب العفيف في العصر الأموي. وهذا التكرار في الألفاظ يرد في أكثر من صورة في رثاء متمم، وبأكثر من طريقة؛ فقد يكرر اللفظ في أول الأبيات^١، وقد يكرر اللفظ في البيت الواحد^٢. وقد يعمد إلى تكرار الألفاظ الألفاظ والجمل، فيستغني بذلك عن الصورة البلاغية في نقل أحاسيسه ومشاعره. وهذا ما نلاحظه بوضوح في قوله^٣:

لَقَدْ لَامَنِي عِنْدَ الْقُبُورِ عَلَى الْبُكَاءِ رَفِيقِي لِتَذْرَافِ الدُّمُوعِ السَّوْافِكِ^٤
فَقَالَ أَتَبْكِي كُلَّ قَبْرِ رَأَيْتَهُ لِقَبْرِ ثَوَى بَيْنَ اللَّوَى وَالِدَكَادِكِ^٥
أَمِنْ أَجْلِ قَبْرِ بَالْمَلَا أَنْتَ نَائِحٌ عَلَى كُلِّ قَبْرِ أَوْ عَلَى كُلِّ هَالِكِ^٦
فَقُلْتُ لَهُ إِنَّ الشَّجَا يَبْعَثُ الشَّجَا فَدَعْنِي، فَهَذَا كُلُّهُ قَبْرُ مَالِكِ^٧

فقد كرر لفظة "قبر" خمس مرّات في أربعة أبيات، تضاف إليها مرّة سادسة جاءت اللفظة فيها بصيغة الجمع. كما كرّر الألفاظ الدالة على البكاء. ولم يكتف بذلك، بل كرر، أيضاً، تساؤل هذا الرفيق الذي يذكره. وإذا تأملنا في البيتين الثاني والثالث فسنجد أنّ أحدهما لا يكاد يختلف عن الآخر، وأنه كان بإمكان الشاعر أن يستغني عن أحد البيتين، لو لم يكن يريد أكثر من تفسير معنى اللوم الذي أشار إليه في البيت الأول! ويمكن أن نلاحظ أن الشطر الأول من البيت الثاني لا يختلف من حيث المعنى المباشر - عن الشطر الثاني من البيت الثالث، وكذلك الشطر الثاني من

١- المجموع، ١٢٩.

٢- المصدر نفسه، ١٠٢.

٣- المصدر نفسه، ١٢٥.

٤- السوافك، جمع سافكة، من السّفك؛ وهو صبّ الدمع.

٥- اللوى والدكادك، مواضع.

٦- الملا، ما اتسع من الأرض. وقال البكري، هو موضع لبني أسد، وهناك قتل مالك بن نويرة (انظر معجم ما استعجم، ٤/١١١).

٧- الشّجا، الحزن. يبعث الشّجا، يهيجه ويثيره.

البيت الثاني لا يختلف عن الشطر الأول من البيت الثالث! ولم يكن الشاعر يرغب في التطويل، أو يفعل ذلك عن غير قصد، بل كان يرغب في التعبير عن أمر ما، ولعله كان يعبر عن تكرار الناس هذا اللوم، لعدم قدرتهم على فهم معاناته. ولذلك يأتي جوابه مقتضباً، بالقياس إلى لوم الرفيق، ولكنه واضح وحازم، ومعبر عن اختلاف كبير في الإحساس بفقد مالك، وفي فهم معنى فقده.

أما الصورة الثانية التي اجتهد متمم في رسمها، فهي صورة الحزن على مالك. وهو يستعين على بنائها بأساليب مختلفة، وأدوات متنوعة، ولكنه لا يخرج في ذلك عما اختطه أسلافه الجاهليون لمثل موقفه، فيتكى، مثلهم، على الليل والحمام والإبل في التعبير عن شدة حزنه، ويذكر ما أصابه بفقد مالك، ولكنه يختلف عن أسلافه في أنه لا يتهم الدهر، ولا يعزّي نفسه بأن الموت مصير الأحياء جميعاً، بل ينصرف عن ذلك إلى التعبير عن طول بكائه وشدة حزنه. وهو يفعل ذلك بلغة رقيقة واضحة، وأسلوب سلس بسيط، فتأتي أبياته تنساب بالسهولة نفسها التي تنساب بها دموعه^١.

وقبل أن نختتم الحديث عن الجانب الفني في شعر متمم ينبغي أن نسجل احترازاً هاماً؛ هو أن الملاحظات التي قيّدناها لا تستغرق شعر متمم كله، بل تستغرق ما وصل إلينا من هذا الشعر. ويبدو أنه لا مناص من تكرار الحديث عن الضياع عند دراسة شعر الشعراء الذين عدت الأيام على دواوينهم، أو الذين لم يجمع القدماء أشعارهم في دواوين. وقد عمل أبو سعيد السكري ديوان متمم^٢، ولكن هذا الديوان ما يزال في بطن الغيب! وليس بين أيدينا منه اليوم سوى ما ذكرته المصادر التي كتب لها البقاء، وهي تشير إلى أنها لا تروي من أشعاره سوى مختارات^٣.

١- المصدر نفسه، ١٣٦.

٢- الفهرست، ١٥٨.

٣- جاء في الأشباه والنظائر (٣٤٧/٢)، "ومراثي متمم في مالك كثيرة، إلا أننا نورد ما نختار من بعضها" وجاء أيضاً، أيضاً، "ومراثي متمم في مالك كثيرة، وإنما أتينا منها باليسير احتجاباً للتطويل".

خاتمة

أسلم متمم، وليس بين أيدينا من الروايات ما يشير، من قريب أو بعيد، إلى رقة في دينه، أو ضعف في إيمانه. ولكن ليس بين أيدينا من أشعاره ما ينهض دليلاً على قوة التزامه الإسلام. ومع ذلك فإن ما عرف عن متمم من تدين دفع أحد الباحثين إلى الإصرار على تأثر متمم بـ"روح الإسلام" في رثائه، فقال: "ويستشعر المرء عمق التأثير العاطفي والفيض الشعوري كما يدرك قيمة المعاني التي ينهل معينها من روح الإسلام؛ كالعفة والنقاء والطهر في الأخلاق وعدم الغدر ورعاية ذمة الله في عهوده...!!^١ في حين أبدى دارس آخر للرثاء في صدر الإسلام استغرابه من غياب الأثر الإسلامي في رثاء متمم، مع إيمانه بحسن إسلامه، فردّ ذلك إلى كون مالك مات مرتداً^٢!!". وتجاهل دارس ثالث^٣ رثاء متمم، فأطلق حكماً عاماً بشأن تأثر الرثاء في صدر الإسلام بالدين الجديد فقال: "فلم نعد نسمع في رثاء الأموات إلاّ التعابير الإسلامية، وانتهت آثار الشرك في الرثاء الذي ألفناه في العصر الجاهلي، وصبغت المفاهيم الإسلامية صور الرثاء صبغة تكاد تكون عامة". ولست أريد أن أحاور هؤلاء الباحثين جميعاً، فأثبت أو أنفي، وأطيل الحديث بإقامة الحجج والأدلة، فليس ذلك من أهداف الدراسة، ولكنني أسرع إلى القول: لم تكن القيم التي ذكرها متمم من "روح الإسلام" - وإن كان الإسلام قد أقرّها، أو أقرّ معظمها ودعا إليه - فقد عرفها الشعراء الجاهليون في رثائهم وفي غير رثائهم! وكذلك من الإسراف الزعم بأنّ متمماً كان يعتقد برّدّة أخيه! فليس في شعره ما ينهض دليلاً على ذلك، فضلاً عن أن الأخبار التاريخية تنفي مثل هذا الاحتمال نفيّاً قاطعاً!

١- حسين جمعة، الرثاء في الجاهلية وصدر الإسلام، ١٤٢.

٢- شعر الرثاء والصراع السياسي، ٧٨، ولا ندري كيف اطمأن الباحث إلى الحكم برّدّة مالك!!.

٣- محمود حسن أبو ناجي، الرثاء في الشعر العربي، ١١١.

ينبغي أن نتذكر أنّ المناخ الذي أنشد فيه الشاعر لم يكن مناخاً إسلامياً قادراً على التأثير في الشعراء، ولا سيما أولئك الذين ظلّوا في مناطق بعيدة عن مركز الدولة. كما أنّ القصيدة الجاهلية ظلت -بسبب غياب قصيدة إسلامية نموذج، وشاعر إسلامي نموذج- المثل الأعلى المُحتذى لدى الشعراء المخضرمين؛ ولذلك لم يكن بوسع متمم إلا أن ينهج نهج أسلافه. كان عليه أن يواجه واقعاً جديداً بمعطيات فنّ قديم، وهكذا عاش كفرد مسلم، وأنشد كشاعر جاهلي.

مع ذلك كلّه، كنا نتوقع أن نقف على بعض آثار إسلامية تتعلق بما بعد الموت؛ كالإشارة إلى مثنوى الفقيد، أو الدعوة له بالرحمة والمغفرة، على الأقل! كما كنا نتوقع أن نجد اتهاماً لخالد بن الوليد، أو اعتراضاً على موقف السلطة منه. ولسنا نعرف ما إذا كان متمم قد قال شيئاً في ذلك. وخلو أشعاره التي وصلت إلينا منه لا يؤكد نفيه بما لا يدع مجالاً للشك؛ ذلك لأنّ تهمة الردّة التي ألصقت بمالك لشرعنة قتله كانت دافعاً كافياً لإسقاط أشعار تتعلق بذلك. كما أنّ المناخ السياسي لم يكن يبيح لمتمم أن يتّهم، أو أن يعترض. وهكذا لم يكن أمام الشاعر إلا أن يعبر عن اعتراضه على كلّ ما جرى ويجري، من خلال إصراره على تمسّكه "فنيّاً" بالجاهلية، وتعبيره من خلال ذلك عن عجز السلطة القائمة عن تحقيق القيم التي كان مالك يمثلها، فيصور أنه بموت مالك لم يبقَ لليتيم من يتكفّل به، وللضعيف من ينصره، وللجائع من يطعمه، وللعاني من يخفّف عنه. وهكذا يرتقي بفقد مالك من حيث كونه فقد رجل، إلى حيث كونه "كارثة"! وفي ذلك اتهام للسلطة من جهة، وكشف عن عجزها عن تعويض فقد مالك من جهة أخرى. أما ما ذهب إليه بعض الدارسين من أنه: "يبدو أنّ الأخوة وما تملّيه، وحبّه لأخيه، كانا وراء هذا الرثاء، بالإضافة إلى إحساسه الشديد بالعجز بعد فقد عائلته ومعينه"^١، أو "قلما أيقن بزوال وليّه ومعينه على الحياة ووجد نفسه وحيداً، فاضت عيناه بالدموع على فقد أخيه،

وعلى ما سيخبئه له القدر بعد أن فرق بينهما^١ فلا يعدو أن يكون تفسيراً سطحياً لا يكشف عن سبب انصراف متمم عن كل شيء إلا رثاء أخيه هذا الرثاء الحارّ الطافح بأحاسيس الغربة والقهر! ولو كان مثل هذا التفسير مقنعاً لما تميّز رثاء متمم عن رثاء غيره ممن أُصيبوا بفقد أخ أو عزيز، بل لكان رثاء النساء الشاعرات أولى بأن يحتلّ هذه المرتبة الرفيعة التي احتلّها رثاء متمم، والتي عبّر عنها الحطيئة بقوله السابق عن حزن متمم: "والله ما بكى بكاءه عربي قطّ، ولا يبكيه".

المصادر والمراجع

١. أسد الغابة في معرفة الصحابة، للشيخ عز الدين أبي الحسن علي بن أبي كرم الشيباني المعروف بابن الأثير. دار إحياء التراث العربي، بيروت، طبعة حجرية، بلا تاريخ
٢. الأشباه والنظائر = حماسة الخالدين.
٣. الاشتقاق، لأبي بكر محمد بن الحسن بن دريد (٢٢٣ - ٣٢١) تحقيق وشرح عبد السلام هارون. دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩١.
٤. الإصابة في تمييز الصحابة، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (٨٥٢) مطبعة السعادة، مصر، ط١، ١٣٢٨هـ. وطبعة مكتبة مصر، ط/ بلا، ١٩٧٧.
٥. الأعلام، لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط٩، ١٩٩٠.
٦. الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني (٣٥٦) شرحه وكتبه همامش الأستاذ عبد أ. على مهنا والأستاذ سمير جابر. دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٩٩٢.
٧. الأمالي (ومعه ذيل الأمالي والنوادر) لأبي علي القالي (إسماعيل بن القاسم

- البغدادي). دار الكتاب العربي، بيروت، بلا تاريخ.
٨. أنساب الأشراف، لأبي جعفر أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري. تحقيق محمود فردوس العظم. دار اليقظة العربية، دمشق، ١٩٩٧. (ومعه المستدرک علی البلاذري)
٩. البيان والتبيين، عمرو بن بحر الجاحظ (٢٥٥) تحقيق عبد السلام هارون. دار الجيل، بيروت، ط٢، بلا تاريخ.
١٠. تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس، للديار بكري، حسين بن محمد. مؤسسة شعبان للنشر والتوزيع، بيروت، طبعة حجرية، بلا تاريخ.
١١. تاريخ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (٢٢٤ - ٣١٠) تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. مصر، ط٢، ١٩٦٧.
١٢. تاريخ مدينة دمشق، لابن عساكر (٤٩٩ - ٥٧١) تحقيق علي شيري. دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٩٥.
١٣. تاريخ اليعقوبي، وهو تاريخ أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح الكاتب العباسي المعروف باليعقوبي. دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٠.
١٤. التذكرة الحمدونية، لابن حمدون محمد بن الحسن بن محمد بن علي (٤٩٥)، ٤٦٢) تحقيق إحسان عباس. دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٦.
١٥. التعازي والمراثي، للمبرد، أبي العباس محمد بن يزيد. تحقيق محمد الديباجي. دار صادر، بيروت، ط٢، ١٩٩٢.
١٦. جمهرة أنساب العرب، لأبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي. دار المعارف، مصر، ط٣، ١٩٧١.

١٧. حروب الردّة، محمد أحمد باشميل. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع (لم يذكر اسم البلد)، ط١، ١٩٧٩.
١٨. حماسة الخالدين، أبو بكر محمد (٣٨٠) وأبو عثمان سعيد (٢٩١). تحقيق السيد محمد يوسف. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط١/بلا، ١٩٦٥.
١٩. الحيوان، عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون. مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، ط٢، ١٣٥٧.
٢٠. خزنة الأدب ولب لباب لسان العرب، عبد القادر بن عمر البغدادي (١٠٣٠ - ١٠٩٣) قدم له ووضع هوامشه وفهارسه د. نبيل طريفي. دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٨.
٢١. ديوان حسّان بن ثابت الأنصاري. تحقيق د. وليد عرفات. دار صادر، بيروت، ط١/بلا، ١٩٧١. وتحقيق د. سيد حنفي حسنين. دار المعارف، القاهرة، ط١، ١٩٧٣.
٢٢. ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني. تحقيق صلاح الدين الهادي. دار المعارف، مصر، ١٩٧٧.
٢٣. الرثاء، د. شوقي ضيف. دار المعارف، مصر، ط٣، ١٩٧٩.
٢٤. الرثاء في الجاهلية والإسلام، د. حسين جمعة. دار معد للنشر والتوزيع، دمشق، ط١، ١٩٩١.
٢٥. الرثاء في الشعر العربي، د. محمود حسن أبو ناجي. منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ط٢، ١٤٠٢ هـ.
٢٦. رسالة الصاهل والشاحج، لأبي العلاء المعري (٣٦٣ - ٤٤٩). تحقيق د.

- عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ). دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٨٤.
٢٧. سمط اللالي في شرح أمالي القالي وذيل الأمالي، لأبي عبيد البكري، عبد الله بن عبد العزيز. تحقيق عبد العزيز الميمني. دار الحديث، بيروت، ط٢، ١٩٨٤.
٢٨. السيرة النبوية، لأبي محمد عبد الملك بن هشام (٢١٨) قراءة وضبط وشرح د. نبيل طريفي. دار صادر، بيروت، ط١، ٢٠٠٣.
٢٩. شرح حماسة أبي تمام، للأعلم الشنتمري (يوسف بن سليمان بن عيس). تحقيق د. علي المفضل حمّودان. دار الفكر المعاصر ببيروت، ودار الفكر بدمشق، ط١، ١٩٩٢.
٣٠. شرح ديوان الحماسة لأبي تمام، تأليف الخطيب التبريزي "يحيى بن علي بن محمد بن بسطام الشيباني". وضع فهرسه العامة أحمد شمس الدين، كتب حواشيه غريد الشيخ. دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٠.
٣١. شرح ديوان الحماسة، للمرزوقي (أحمد بن محمد بن الحسن). نشره أحمد أمين وعبد السلام هارون. دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩١.
٣٢. شرح اختيارات المفضل، الخطيب التبريزي. تحقيق د. فخر الدين قباوة. دار الفكر المعاصر بدمشق، ودار الفكر المعاصر ببيروت، ط٣، ٢٠٠٢.
٣٣. شعراء الرّدة "أخبارهم وأشعارهم"، تأليف وتحقيق تماضر عبد القادر فياض. دار البشائر، دمشق، ط١، ٢٠٠٧.
٣٤. شعر الرثاء في صدر الإسلام "دراسة موضوعية فنيّة"، د. مصطفى عبد الشافي الشورى. مكتبة لبنان "ناشرون" والشركة المصرية العالمية للنشر "لونجمان". ط١، ١٩٩٦.

٣٥. شعر الرثاء والصراع السياسي والمذهبي في صدر الإسلام، د. محمد أبو المجد علي. دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع، الإسكندرية، ط١، ١٩٩٤.
٣٦. الشعر والشعراء، لابن قتيبة الدينوري، عبد الله بن مسلم (٢١٣-٢٧٦) تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر. دار المعارف، مصر، ١٩٨٢.
٣٧. صفة جزيرة العرب للهمذاني، تحقيق محمد بن علي الأكوغ، مركز الدراسات والبحوث اليمني بصنعاء، ودار الآداب ببيروت، ط٣، ١٩٨٣.
٣٨. طبقات فحول الشعراء، لابن سلام الجمحي (١٣٩-٢٣١). قرأه وشرحه محمود محمد شاكر. مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٧٤.
٣٩. العقد الفريد، لابن عبد ربه الأندلسي (أبي عمر أحمد بن محمد). حققه وشرحه وعرفّ أعلامه د. محمد ألتونجي. دار صادر، بيروت، ط٢، ٢٠٠٦.
٤٠. العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، للقيرواني (أبي علي الحسن بن رشيق الأزدي)، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد. دار الجيل، بيروت، ط٥، ١٩٨١.
٤١. فتوح البلدان، للبلاذري (أبي العباس أحمد بن يحيى بن جابر). حققه وشرحه عبد الله أنيس الطباع وعمر أنيس الطباع. مؤسسة المعارف، بيروت، ١٩٨٧.
٤٢. الفهرست، لابن النديم محمد بن إسحاق. دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٨.
٤٣. في الشعر الإسلامي والأموي، د. عبد القادر القط. مكتبة الشباب بالمنيرة، مصر، ١٩٩١.
٤٤. قلق الانتماء في همزية حسان بن ثابت الأنصاري "قراءة في توثيق النص القديم وتأويله"، مقال للدكتور فاروق إسليم، في مجلة جامعة تشرين للدراسات

- والبحوث العلمية "سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية" المجلد ٢٩، العدد ٢، ٢٠٠٧.
٤٥. الكامل في التاريخ، لابن الأثير، عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم (٦٣٠). حققه واعتنى به د. عمر عبد السلام تدمري. دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٩٩٩.
٤٦. الكامل في اللغة والأدب، للمبرد، أبي العباس محمد بن يزيد. عارضه بأصوله وعلّق عليه محمد أبو الفضل إبراهيم، والسيد شحاته. دار نهضة مصر، ط/بلا، تا/بلا.
٤٧. كتاب الرّدة ونبذة من فتوح العراق، للواقدي، محمد بن عمر بن واقد. اعتنى بتهديبه محمد حميد الله. المؤسسة العالمية للنشر، باريس، ط١، ١٩٨٩.
٤٨. كتاب الفتوح، لابن الأعمش الكوفي، أبي محمد أحمد بن أعمش. تحقيق علي شيري. دار الأضواء، بيروت، ط١، ١٩٩١.
٤٩. كتاب الغزوات، لابن حبيش عبد الرحمن بن محمد (٥٠٤ - ٥٨٤) تحقيق ونشر د. أحمد عنيم. القاهرة، ط٣، ١٩٨٣.
٥٠. لسان العرب، لابن منظور (جمال الدين محمد بن مكرم). دار صادر، بيروت، بلا تاريخ.
٥١. مالك وتمام ابنا نويرة اليربوعي، تأليف ابتسام مرهون الصفار. مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٦٨.
٥٢. مشكلة الإنسان، د. زكريا إبراهيم. دار مصر للطباعة، مصر، لم يذكر تاريخ الطبع.
٥٣. معجم البلدان، لأبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي (٦٢٦). دار صادر - دار بيروت، بيروت، ١٩٨٤.

٥٤. معجم الشعراء، للمرزباني (محمد بن عمران بن موسى) تحقيق د. فاروق اسليم، دار صادر، بيروت، ط١، ٢٠٠٥.
٥٥. معجم مقاييس اللغة، لابن فارس (أحمد بن فارس بن زكريا). تحقيق وضبط عبد السلام هارون. طبعة اتحاد الكتاب العرب بدمشق، بلا تاريخ.
٥٦. نوادير المخطوطات. تحقيق عبد السلام هارون. دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩١.
٥٧. الوحشيات (الحماسة الصغرى) لأبي تمام حبيب بن أوس الطائي، علق عليه وحققه عبد العزيز الميمني الراجكوتي، وزاد في حواشيه محمود محمد شاكر. دار المعارف، مصر، ط٣، ١٩٨٧.
٥٨. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لابن خلكان، أحمد بن محمد. تحقيق إحسان عباس. دار صادر، بيروت، ط١/بلا، تا/بلا.